

الفصل الأول

منهج ابن خلدون في فهم اللغة

يشمل :

- ١ — الملكة اللسانية في رأى ابن خلدون
- ٢ — تفسير ابن خلدون لجوانب من درس اللغة
- ٣ — ملكة الشعر ولغته في تصور ابن خلدون
- ٤ — قرائن الكلام وقوانين الإعراب في فهم ابن خلدون

الملكة اللسانية في رأى ابن خلدون

يقول ابن خلدون « يظن كثير . . ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم أمر طبيعي ، ويقول : كانت العرب تنطق بالطبيع — وليس كذلك وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام ، تمكنت ورسخت ، فظهرت في بادىء الرأى أنها جيلة وطبيع ، (١) .

وهدف هذا الموضوع معرفة تلك الملكة اللسانية ، وعلاقتها بالنطق الصحيح والدراسة المفيدة كما فهم ذلك كله ابن خلدون — مع مقارنة ذلك بما يقوله علم اللغة الحديث الذى يتفق إلى حد كبير مع ما سبق به العالم العربى العظيم — ثم توظيف هذه الآراء للإجابة عن تساؤلات مهمة حول اللغة ودراستها في وقتنا الحاضر .

يقدم ابن خلدون تصوره لهذه الملكة من ناحيتين : ناحية الألفاظ ، المفردة والمركبة ، وناحية تمكن الملكة لدى المتكلم مما أطلق عليه « تكرار الأفعال ، ويرى أن تمام الملكة اللسانية إنما هو بالنظر إلى التراكيب اللغوية لا بالنظر إلى المفردات ، وهذه التراكيب اللغوية تعبر عن المعانى المقصودة للتكلم ، فيتحقق بها الإفهام الصحيح ، ويراعى في تأليفها المطابقة لمقتضى الحال ، وهذا — كما يقول — هو معنى البلاغة .

وحول تمكن الملكة للناطق « بشكرار الأفعال ، يصور ارتقاء هذا التكرار من الصفة إلى الحال إلى الملكة ، لأن الفعل يقع أولا وتعود منه للذات صفة ، ثم تكرر ، فتكون حالا ، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة ، أى : صفة راسخة ، (١) .

هذه النظرة السابقة — بشقيها — لا يقصد بها ابن خلدون اللغة العربية وحدها ، بل هي فكرة عامة تنطبق على كل اللغات ، لأن اللغات إحدى مظاهر المجتمع الإنساني بل أخطر هذه المظاهر جميعاً ، وهو — فى مقدمته — يتحدث عن مظاهر المجتمع والعمران بفهم عميق لقوانينها وتطورها وعوامل رقيها وفسادها ، مما يكون نظريته الاجتماعية المتكاملة — وهذه النظرة السابقة — بشقيها — عن اللغة إحدى جزئيات هذه النظرية .

فإذا اصطحبنا هذا الفهم إلى ما يقوله علم اللغة الحديث ، وجدنا الآتى :
تتدرج الدراسة اللغوية من علم الأصوات إلى الصرف إلى النحو ، وعلى مستوى النطق من الصوت إلى الكلمة إلى الجملة ، وهذه الأخيرة — الجملة — هى هدف الدراسة اللغوية التى تسبقها ، وهى التى يتحقق بها الفهم والإفهام .
ويقرر المحدثون أيضاً أن اللغة — أى لغة — مستويات ثلاثة هى (اللغة المفهومة — اللغة الصحيحة — اللغة البليغة)

والمقصود باللغة المفهومة أن تكون أداة للإفهام فى أدنى درجاته ، حيث لا يراعى فيها غالباً عرف اللغة المستعملة وما يقرره من نظام فى الأصوات والصيغ والجل ، وقد أورد « الجاحظ » فى كتابه « البيان والتبيين » نماذج من استعمال هذه

اللغة من أجانـب عصره ، حيث كانوا يستعملون اللغة بقصد الإفهام مع التخليط في نظمهم أصواتاً وصيغاً وجملاً ، تماماً كما يستعمل الأجانب عن اللغة العربية الآن هذه اللغة للإفهام دون مراعاة مستوى الصحة .

أما اللغة الصحيحة فهي في درجة أعلى من كونها للإفهام ، فلا يتحقق لها هذا الوصف — الصحة — إلا بمراعاة ما يحققها من نظام في الأصوات والبنية والإعراب .

أما اللغة البليغة فهي التي تحقق مستوى الجمال في التعبير أو كما يقول « جراي » Gray ، استعمال الكلمات استعمالاً صحيحاً تصور به الظلال الدقيقة للمعاني التي يرغب الكاتب في إثارتها .

ومن قضايا علم اللغة العام المعروفة (أن اللغة ملك من يتعلمها لا أثر فيها للوراثة أو الجنس) فهناك فرق بين الاستعداد للتكلم والكلام نفسه ، الأول ضروري للإنسان لا يتخلف ، فطبيعى أن يتكلم الإنسان كما هو طبيعى له أن يمشى وأن يتنفس ، وهذا الاستعداد الفطرى لا بد أن يتحقق للإنسان في صورة كلام فعلى ما لم يوجد طارئ قاهر يمنع تحقيقه ، وهذا الكلام الفعلى يعتمد على التعليم والتدريب المستمر لاكتساب لغة المجتمع الذى يعيش المرء فيه ، تماماً كما يكتسب المظاهر الاجتماعية الأخرى من تقاليد وعادات ، حتى تصبح اللغة بالنسبة له أمراً عادياً لا يكاد يشعر به حين يستعمله .

إن ابن خلدون في تصوره « للملكة اللسانية » قد سبق — بحق — فهم اللغويين المحدثين لها من حيث اعتمادها على الجملة لا المفردات ، ومن حيث تدرجها من الإفهام إلى الصحة إلى البلاغة ، ومن حيث حصول هذه الملكة من العرف والعادة والمعايشة المستمرة للنطق في بيئة الفرد اللغوية .

فما كيفية الإفادة من تلك النظرة في حياتنا اللغوية المعاصرة ؟

ما تزال مستويات اللغة الآن — كما كان الأمر في عهد ابن خلدون وقبل عهده — مختلفة بين اللهجات التي تعبر عن المعاني الدارجة والحاجات اليومية المتكررة والفصحى الصحيحة التي تعبر عن المواقف العامة والفكر الراقى وأيضاً لغة الأدب المشحونة بالاحاسيس والمشاعر التي تعتمد على الصورة والإيحاء والظلال .

ونطق اللهجات في القرى والمدن لا يسبب لنا الآن مشكلة ذات بال ، فلا أعلم أن والدى الأُمى في القرية قد عانى — أو يعانى — أى مشكلة في نطق لهجته ولا يخطر على بال أى فرد في صعيد مصر أن لهجته قواعدها ونظمها الخاصة التي يمكن أن تحلل وتدرس ، وهكذا الأمر في لهجات العالم العربى من أقصاه إلى أقصاه في مصر أو اليمن أو العراق أو المغرب ، فلكل لهجة التي لا يخطئها الناطق بها ، ولا تحتاج منه لجهد أو دراسة ، والسبب في ذلك ما ذكره ابن خلدون عن الملكة السانية من تكرر سماع اللهجات على الآذان حتى أصبحت صفة راسخة وعادة بديهية ، ينطقها أهلها تلقائياً دون معاناة .

أما اللغة الصحيحة الفصيحة — وبالأولى اللغة البليغة — فهي المشكلة الحقيقية لأن من يجيدون النطق العربى الصحيح بين عوام المثقفين نادر جداً ، بل إنه بين المثقفين المشتغلين بالكلمة قاصر قصوراً شائناً ، ويهمل في بعض الأحيان إلى الفساد البين .

فإذا استرشدنا بنظرة ابن خلدون لمعرفة الداء ، فذلك أمر لا عسر فيه ، لأن الملكة الصحيحة تتكون بسماع اللغة الصحيحة وتكرار هذا السماع ، وبالمثل تقصر هذه الملكة عن الوصول إلى مستوى الصحة ما دام المناخ المحيط بها تسبج

في أجوائه الاخطاء واللكنة والتواء الالسن وضحالة الثقافة العربية وتغلب اللهجات المحرفة ، كما يساعد عليه الإهمال الشائن والوقوع تحت سيطرة الأساليب الأجنبية الوافدة .

وإذا استرشدنا أيضا بنظرة ابن خلدون في شأن العلاج الناجع ، كان النهج الذي يتبع يسيراً في خطته ، لكنه في حاجة إلى جهد شاق في تنفيذه ١١ وهو في عبارة واحدة « تعود الملكة اللسانية الصحيحة الجميلة ، فكيف يكون ذلك ١٢

لقد وصف ابن خلدون ذلك متفقاً مع نظراته الاجتماعية النافذة عن اللغة عامة ومطبقة على اللغة العربية تاريخياً في مرحلتها المتقدمة ، يقول « فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم . . . فيلقنها كذلك ، ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم ، واستعماله يتكرر ، إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم (١)

لكن المتعلم العربي الآن — كما كان الأمر في عهد ابن خلدون — لا يملك هذا المناخ الصافي وهذا المشرب العذب المتاح الميسر ، إن العكس هو الصحيح إذ يحيط به من كل جانب ما يدفعه دفعاً عن صحة اللغة وجمالها اجتماعياً وثقافياً سماعاً وقراءة وكتابة ، ولم يعد في متناول يده ذلك النموذج المثالي الطبع الاصيل الذي يلقنه له المجتمع فيحاكيه ويحتذيه دون تعمد — لذلك كان من الواجب اصطناع هذا المناخ اللغوي اصطناعاً ، واتخاذ الوسائل التي توصل إلى إجادة هذه الملكة اللسانية بقدر الإمكان .

ويقدم ابن خلدون رأيه في هذه الحال الناشئة عن حاجة الملكة للتعلم تفعدا وصناعة بعد أن انتهى العهد الذى كانت تتعلم فيه فيه طبعا وسليقة ، وهذا الرأى الذى يقدمه منسجم تماما مع فهمه ونظرة ، يقول « ووجه التعليم لمن يبتغى هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم — العرب — القديم الجارى على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ، ومخاطبات فحول العرب فى أسماهم وأشعارهم ، وكلمات المولدين أيضا فى سائر فنونهم ، حتى ينزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ، ولقن العبارة عن المقاصد منهم — ثم يتصرف بعد ذلك فى التعبير عما فى ضميره على حسب عبارتهم وتأليف كلماتهم وما وعاء وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم ، فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال (١) ،

أجل .. حفظ كلام العرب ... والتعبير على حسب عبارتهم وتأليف كلماتهم ...
فحصل هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال !!

هذا هو الحل فى رأيه ، وهو حل تثبت الملاحظة صحته ، فأولئك الذين نشأوا فى التعليم الدينى الأزهرى أقدر من غيرهم فى ملكة اللسان من خريجي المدارس المدنية ، والسبب فى ذلك يقينا هو حفظ القرآن الكريم والمداومة على تلاوته — ولو درست حياة كبار الشعراء والكتاب كآبى تمام والبارودى والعقاد للبحث عن سر تمكنهم من التعبير الصحيح ، لعرفت أن من أهم أسباب ذلك كثرة ما حفظوه من نصوص الشعر والنثر حين تكوّنهم اللغوى فى الصغر والشبيبة — ومن يتصفح كتابا لتراجم الأدباء والعلماء مثل « معجم الأدباء » يتأكد لديه أن معظم هؤلاء — كما تقول تراجمهم — قد قرأوا كثيرا من المنظوم والمنثور قبل

أن يتصدوا للكتابة الصحيحة الفصيحة بل استطاع رواة اللغة مثل د حاد الراوية وخلف الأحمر ، بإجادة صنعتهم محاكاة الشعراء ونسج الشعر على منوالهم وتزييفه بنسبته لهم ، وهذه قضية عريضة تدرس في تاريخنا تحت اسم «الانتحال» والمهم في هذه القضية جانبها اللغوى من دلالتها على أن القرس بالنصوص الصحيحة واستمرار هذا القرس يصنع الملكة اللسانية التى يصل بها الامر حد المطابقة بين الاصل والتقليد ، بين الرواية والدراية ، بين الفطرة والصنعة .

إن الاخذ بهذه الفكرة — فيما أظن — مفيد جداً لتكوين الملكة اللسانية للناطق العربى المعاصر عن طريق العناية بالنصوص واستعمالها بطريقة صحيحة .

وفى بعض البلاد العربية — المملكة السعودية — يأخذون الطلاب فى مراحل التعليم المختلفة بقراءة أجزاء معينة من القرآن الكريم كل عام مع إشراف جاد وحاد على هذه القراءة من علماء متخصصين فى الإقراء والتحفيز — ولنا أن تصور مدى الفائدة اللغوية التى يحققها تطبيق هذه التجربة فى العالم العربى — ومعظمه من المسلمين — بقراءة جزء واحد — لاحتفظه — فى كل عام دراسى من طلابنا الذين يقضون فى التعليم ما يقرب من خمسة عشر عاماً .

ثم يتعرض ابن خلدون لموضوع خطير هو «صلة النحوي بهذه الملكة اللسانية» فيقول عن صناعة العربية وقوانين الاعراب «إنما هى معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة ، فهى علم بكيفية لانفس كيفية ،

ثم يشرح هذه الفكرة بالتفريق بين الملكة وقوانين الملكة ، بين العلم النظرى والخبرة العملية بالتجربة ، ويقدم تنظيراً لذلك بمن يجيد العلم بصناعة التجارة ولا يمارسها عملاً ، فإذا سأله عنها شرحها لك قائلاً «أن تضع المنشار على رأس

الخشبة ، وتمسك بطرفه وآخر قبالتك بمسك بالطرف الآخر ، وتتعاقبانه بينكما وأطرافه المضرسة المحددة تقطع ما مرت عليه ذاهبة جائية ، إلى أن ينتهي إلى آخر الخشبة ، ويعقب ابن خلدون على ذلك بقوله « وهو لو طوّل بهذا العمل أو شيء منه ، لم يحكمه » ، بل إنه ليؤيد رأيه بتمثيل آخر أقرب من واقع القضية نفسها ، بأن كثيراً ممن درسوا النحو وتعمقوا أصوله وفروعه وأفنوا أعمارهم في البحث عن مسائله ومشاكله ولم يجيدوا هذه الملكة اللسانية لا يستطيعون التعبير اللغوي الصحيح ، بينما كثير من الكتّاب والشعراء ممن أجادوا هذه الملكة يعبرون عما يريدون بطلاقة وسلاسة وإن لم يتعمقوا النحو وقضاياه — ولندع ابن خلدون يتكلم « نجد كثيراً من جهابذة النحو والمهرة في صناعة العربية إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذى مودته أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده أخطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن ، ولم يجد تأليف الكلام لذلك .. وكذا نجد كثيراً ممن يحسن هذه الملكة ، ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ولا شيئاً من قوانين صناعة العربية » (١)

إن هذه الفكرة المستنيرة التي تنسجم تماماً مع نظريته كلها توافقه الدراسات اللغوية الحديثة عليها ، إذ تفرق بين الكلام واللغة ، فالكلام من خواص الفرد ، واللغة من خواص الجماعة ، الكلام نشاط حي فيه جدة الاستعمال وحيويته واللغة نظم مجمدة في القواميس وكتب النحو والصرف .

والمتكلم حين يستعمل اللغة ، فإنه يلجأ لما يطلق عليه محاكاة النظم Analogy بمعنى أنه يتكلم بناء على ما اختزنه في ذهنه مما اكتسبه من نظم البيئة اللغوية التي

يعيش فيها ، أو بعبارة أخرى : إنه لا يتكلم كيفما اتفق ، بل يتكلم بحسب العرف والعادة للغة المجتمع الذى يعيش فيه ، تلك التى اكتسبها بتدريب الملكة اللسانية وتعودها .

وهناك فرق بين ما يعتاده المتكلم من نظم اللغة التى يقيس عليها وما يفعله علماء النحو من وضع القواعد والقوانين ، الأول يحدث دون قصد وتعمد أما الثانى فنية العمد فيه واضحة مقصودة ، الأول يتعوده الشعور حتى يصبح عادة من عاداته كالمشى والطعام ، والآخر مقاييس محددة موضوعة للاكتساب والفهم الأول انعكاس الاستعمال على ناطق اللغة ، والثانى آراء الدارسين المقتنة من يستعمل اللغة .

والدور الذى تؤديه كتب النحو — فى رأى ابن خلدون — يرتبط بفهمه « للملكة اللسانية ، واعتمادها أساساً على النصوص اللغوية ، وبناء على ذلك رحب الرجل « بكتاب سيديويه » ، لأنه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط ، بل فيه كثير من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم ، وهو — بهذه الصفة — يساعد على تكوين الملكة ، ومثله كل كتب النحو التى تعنى بالأمثلة الراقية والنصوص المنتقاة والتأريخ اللغوية المفيدة .

أما كتب النحو المتأخرة فكل منها القواعد الجافة والأمثلة المتجمدة والتأريخ الذهنية والمجادلات العقيمة والاستطرادات الجائنية ، فالمخالطون لهذه الكتب — كما يقول ابن خلدون — قلما يشعرون بأمر هذه الملكة أو يقتنبون لشأنها ، فتجدهم يحسبون أنهم قد حصلوا على رتبة فى لسان العرب وهم أبعد الناس عنه .

لكننى أضيف توضيحاً للكلام ابن خلدون أن النحو هو قوانين الملكة فهو « حارس لها » بعد تحصيلها من النصوص أولاً ، إذ الواقع أن كثيراً ممن

يحيدون العربية لإجادة تامة يراجعون أحياناً مصادر النحو واللغة حين تتمثر الملكة في النطق أو تضل الحقيقة الحاسمة عنه ، حينئذ يكون استفتاء قوانين الملكة ... استفتاء النحو .

تحية إلى ابن خلدون الذي يعود إلى الدرس اللغوى الحديث من وراء القرون مهبياً جليلاً ، فيدهشنا بفهمه وذكائه ونفاذ بصيرته ، لنفيد الآن من نظرياته وآرائه .

تفسير ابن خلدون لجوانب من درس اللغة

النظرة الأساسية الملزمة عند ابن خلدون تركزت على ما أسماه «الملكة اللسانية» وما يدور حولها ، وقد قرر أنها ملكة صناعية في اللسان للعبارة عن المعاني إذ يعتادها بالتكرار وتوالى التكرار حتى تصبح صفة راسخة ، يصدر عنها ما يعبر اللسان عنه دون مشقة أو عناء .

ومن هذا المنطلق العلي المحدد كتب ابن خلدون ما يقرب من مائة صفحة في «المقدمة» (١) شرح فيها الملكة شرحا ضافيا بخبرة عالم الاجتماع النافذ النظر ، وعرض أثناء ذلك لجوانب متعددة تتعلق بها من درس اللغة ، فقدمها منسجمة تماما مع نظريته الاجتماعية في فهم هذه الملكة .

ومن القضايا المهمة التي جاء ذكرها في رأيه وقدم لها الحل من نظريته :

(أ) الفطرة والتعلم في اكتساب اللغة

(ب) كتب النحو بين خدمة اللغة وصناعة الجدل

(ج) تحصيل اللسان العربي للعرب والأعاجم

وفكرة هذا البحث هي بيان النهج العلمي الموحد المقنع الذي استطاع به العالم العربي العظيم حل هذه القضايا ، فقررت في مكانها حول نظريته السكلية عن «الملكة اللسانية» دون نبوءة أو نشاز .

(١) الجزء الرابع ص ١٢٥٠ وما بعدما (تحقيق : وافي)

الفطرة والتعلم فى اكتساب اللغة

أجرى علماء اللغة العرب المحدثون حواراً جاداً وحاداً مع آراء علماء اللغة العرب الأقدمين حول الطبع والتعلم فى نطق العرب للغة .

ومن رأى المحدثين أن العلماء العرب قد فهموا أن نطق العرب — والأعراب بصفة خاصة — فى عصر الاستشهاد للغة الصحيحة الفصيحة كان سليقة لهم وطبعاً ملازماً وفطرة فطروهم الله عليها فكأنما ولدوا وهى تجرى فى أعراقهم ، شأنها شأن سخنهم وطبائعهم .

ويقدم المحدثون دليلاً لذلك أن أصحاب المعاجم العربية فسروا الكلمات (سليقة — خليقة — طبيعة) بمعنى واحد فى نطق اللغة .

جاء فى أساس البلاغة : يقال : الكرم سليقته والسخاء خليقته ، وهو يتكلم بالسليقة .

وجاء فى القاموس : السليقة — كسفيئة — الطبيعة ، ويتكلم بالسليقة ، أى : عن طبعه لا عن تعلم . انتهى .

فالكلمات الثلاث تفسر كل منها الأخرى ، فهى بمعنى واحد فى إطلاقها على نطق الشعراء والأعراب الفصحاء .

كما يسوقون بعض الروايات التى تؤكد هذا الطبع وتلك الفطرة فى نطق الأعراب ، ومنها :

• أورد الجاحظ الخبر التالى قال : روى عن رجل من بنى منقر أنه قال : تكلم خالد بن صفوان فى صالح بكلام لم يسمع الناس قبله مثله ، فإذا أعرابى فى بيت ما فى رجله حذاء ، فأجابه بكلام وددت الله أنى كنت مت وأن ذلك لم يكن ، فلما رأى خالد ما نزل به ، قال : يا أخا منقر ، كيف نجارهم ولأنما نحكيم !!

وكيف نسابهم وإنما نجرى على ما سبق لإينا من أعراقهم (١) ١١

ويرى المحدثون أن هذه النظرة غير صحيحة ، وأن اللغة اكتساب وعرف ، وأن هناك فرقا بين الاستعداد للتكلم والكلام نفسه ، والاول هو الذى يصح أن يطلق عليه « الخليقة والفطرة » ، وأما الثانى فيكتسبه الإنسان من المجتمع الذى يعيش فيه كما يكتسب كل المظاهر الاجتماعية الأخرى (٢).

ويرتب المحدثون على ذلك أن هذه النظرة للعرب قد انزلت بعلماء اللغة الأقدمين إلى أخطاء ومحظورات فى دراسة اللغة ، أبرزها « الثقة المطلقة » بكل نطق عربى سمع وإن كان غير أهل للثقة والتوثيق — ومظاهر ذلك كثيرة ليس هنا مجال ذكرها .

وابن خلدون يفهم « الطبع والصنعة » فهما خاصا لا يتفق مع ما نسبته المحدثون لعلماء اللغة العرب فى فهم « الخليقة والفطرة » ، كما أنه لا يتفق تماما مع فهم المحدثين من إطلاق معنى « الاكتساب والعرف » ، إن فهمه لهذه القضية يدور فى إطار فهمه « للملكة اللسانية » التى تحصل — كما يقول — من تكرار الأفعال التى تحدث الصفة ثم الحال ثم الملكة .

فتكون « الملكة اللسانية » — فى رأيه — يتم بهذه الطريقة سواء أكان ذلك فى عصر الاستشهاد أو بعد هذا العصر ، ومادامت الظروف مهيئة لاكتساب تلك الملكة وحدث مراحلها الثلاث ، فإن النتيجة المؤكدة حدوث تلك الملكة فى اللسان والتعبير بها عن المعانى .

وتفريقه بين « الطبع والصنعة » يعود لتلك الظروف التى تتحقق بها الملكة

(١) البيان والتبيين ١/ ١٧٣ .

(٢) انظر : من أسرار اللغة ص ١٩ وما بعدها .

والمناخ الذى تحدث فيه ، فإذا كانت تلك الظروف موجودة تلقائيا ، فإن تلقين اللغة يجرى بصورة عفوية ، فيتمكن منها الناطق دون قصد لتعلمها ، فيستعملها كما يستعملها كل الناس من حوله ، وهذا هو المقصود من «الطبع» الذى ينسب للفصحاء من العرب ، إذ تعلموا اللغة من الجيل الذى عاشوا فيه — وكان فصيحاً — وأجادوها من السماع الصحيح من حولهم — وكان النطق صحيحاً — فتحدثوا هم أيضاً بطريقة فصيحة صحيحة دون تعليم من أحد .

يقول ابن خلدون : فالتسكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطبتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها ، فيلقنها أولاً ، ثم يسمع التراكيب بعد ، فيلقنها كذلك ، ثم لا يزال سماعهم لذلك يحدث في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر ، إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم — هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل ، وتعلمها العجم والأطفال ، وهذا هو معنى ما تقوله العامة من أن اللغة للعرب بالطبع .

ومع تأخر الزمان بالعرب اختلطت بهم أجناس أخرى ، وترتب على ذلك أن وسيلة السماع التى تكون الملكة أصبحت هى الأخرى مختلطة ، إذ يسمع النائم كيفيات عربية صحيحة وكيفيات أخرى غير صحيحة من غير العرب فاختلط الأمر ، وهذا — كما يقول — معنى فساد اللسان العربى ، وهنا يأتى دور «الصنعة والتعليم» والمقصود به تحصيل الملكة بطريقة صناعية لا عفوية ، طريقة التلقين المتعمد للنصوص العربية شعراً ونثراً حتى تتكون الملكة بهذا الحفظ والاستعمال .

يقول ابن خلدون : وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تتكون جودة المصنوع نظاماً ونثراً وهكذا ينبغي أن يكون تعلمها .

إن فهم ابن خلدون « للطبع والصناعة » لا يتجه إلى ما فهمه المحدثون منهما فاللغة كلها « اكتساب » بل اتجه لما هو أدق وأعمق ببيان « كيفية الاكتساب » الذى يحدث « الملكة » بما يلخصه الآتى :

• اللغة للعرب بالطبع : أى بالملكة الأولى التى أخذت عنهم ، ولم يأخذوها عن غيرهم .

• اللغة للعرب بالصناعة : أى بالملكة التى تحدث بكثرة المحفوظ شعرا ونثرا وجودة الاستعمال .

فالمحدثون من اللغويين العرب فهموا « الاكتساب » على أنه مرادف « للتعلم » ومقابل « للخلقة والفطرة » وراحوا يجادلون اللغويين العرب على أساس هذا الفهم .

أما ابن خلدون فقد فهم « الاكتساب » على أنه مرادف لحدوث « الملكة اللسانية » وبناء على ذلك فرق فى حدوثها بين « الطبع والتعلم » كما سبق بيانه .

كتب النحو بين خدمة اللغة وصناعة الجدل

(النحو للكلام كالمالح للطعام) عبارة لا يدري قائلها تتردد بين المشتغلين بهذا العلم ، إن النحو ليس هو الكلام ، لكنه ضرورى لإصلاحه وتقبله تماما كما أن المالح ليس هو الطعام نفسه ، لكنه ضرورى لاستكمال إجادة طهيه وتذوقه وإساغته ، لكن المالح إذا زاد عن القدر المطلوب مجته الطبيعة البشرية فى ذاته ، وعافت الطعام الذى خالطه أيضا ، والنحو أيضا — مع افتراض قبول العبارة السابقة — إذا استخدم فى اللغة بقدر حاجتها منه وفائدته لها كان مقبولا مساعا ، أما إذا جاوز الحاجة والفائدة إلى الإكثار والتزيد دون حاجة ، فإنه (فى اللغة ودراستها — ٢)

حينئذ يكون عبثا في ذاته حيث يصعب فهمه واستيعابه ، وربما أدى الامر إلى ذود الناس عن الإقبال على تعلم اللغة نفسها ، بله التفره منها ، إذ أن كثيرا من عوام المثقفين في العالم العربي الآن يمزجون بين النحو واللغة ويعتبرونهما شيئا واحدا لا يصح أحدهما بدون الآخر، فليس النحو في فهم هؤلاء وسيلة للغة ، بل هو اللغة نفسها ، وما دام تفهمه واستيعابه نقف دونهما العوائق العلمية التي تمقلب إلى عوائق نفسية وذهنية ، فإن جريرة ذلك كله تقع على اللغة العربية نفسها ، فتوصف بالصعوبة والتخلف والتعقيد .

قضية مثيرة خطيرة ولاشك ، هي البحث عما في النحو العربي من نافع يجب علمه ، ومن غير نافع لا يضر جملة ، جسدها « ابن مضاء القرطبي » قديما بقوله :

• ومثل هذا المكتوب - الرد على النحاة - وكتب النحويين كمثل رجال ذوى أموال عندهم الياقوت الراقى والزبرجد الفائق والذهب الإبريز والورق التي برزت في الخلوص كل التبريز ، وقد خالطها من الزجاج الذى صفى حتى ظن زبرجدا والنحاس الذى عولج حتى حسب عسجدا ما هو أبهى منظرا وأعظم في مرأى العين خطرا وأكثر عدة وأجد جدة ، حتى صاروا بها ألهج ، وظنوا أنهم إلىبها أحوج (١) .

وقد درس اللغويون العرب المحدثون هذه القضية بعمق واستقصاء ، فدلوا على ما حواه النحو العربي من الصنفين ، ودللوا على ما ارتأوه بما أتاحتهم ثقافتهم اللغوية الحديثة من فهم جديد لقضايا النحو .

(١) الرد على النحاة ص ٨١ .

(٢) راجع في ذلك : اللغة بين المعارية والوصفية — وأصول النحو العربي .

فإذا يقول ابن خلدون عن هذا الموضوع ١١

إنه — بناء على نظرتة للملكة اللسانية التي تكونها ممارسة النصوص — يرفض ابتداء أن يكون للنحو صلة بالكلام ، ويقرر ذلك تقريراً حاسماً بقوله « فن هذا تعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية ، وأنها مستغنية عنها بالجملة ، وقدم قبل ذلك أساس هذا الرفض بقوله « وهكذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة في نفسها ، فإن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية ، وليس هو نفس كيفية »

فهو منطقي تماماً مع نفسه ومع نظرتة ، فالتحو — في رأيه — ليس هو الكلام ، والكلام هو الذي يكون الملكة ، وما دام الأمر كذلك ، فلا علاقة له بتلك الملكة وليس ضروريا لها ، وفي ظني أن ابن خلدون لو استمع للعبارة الذائعة الصيت التي بدأ بها الحديث عن هذا الموضوع (النحو للكلام كالملاح للطعام) لرفضها كلية دون نقاش ، أو لناقشها بما سبق آنفاً بما يؤدي أيضا إلى رفضها .

لكن ابن خلدون تحدث عن كتب النحو التي حوت ما أسماه أحيانا « قوانين الإعراب » ، وأحيانا أخرى « صناعة الإعراب » ، وهو في حديثه ذاك لم يناقش ما حوته من تلك القوانين أو هذه الصناعة ، لبيان فائدتها أو عدم جدواها كما فعل ابن مضاء قديما وعلماء اللغة العرب المحدثون حديثاً ، فإنها — كما قرر بكل الجراءة والصراحة — لا علاقة لها بملكية اللسان .

وفي تقييم ابن خلدون لتلك الكتب راح يبحث عما يخدم قضيته هو — قضية الملكة — تلك التي ترتبط بالنصوص وإجادتها بعادة الحفظ وكثرة الاستعمال ، ولذلك فإن كتب النحو من حيث علاقتها بهذه الفكرة صنفان :

الأول : ما يخدم اللغة ويفيد الملكة ، وهو ما يحوى نصوصا كثيرة من كلام العرب ، من الأمثال والشواهد والأشعار ، فيستقر في محفوظ الدارس والمتعلم ، ويتنبه به لشأن الملكة ، ويرى أن ذلك يتحقق في « كتاب سيبويه » بشرط أن يهتم دارسه بصورة أساسية بما فيه من نصوص ، أما من يغفل عن التفتن لذلك فيحصل — كما يقول — على علم اللسان صناعة ولا يحصل عليه ملكة .

الثاني : ما لا يخدم اللغة ولا يفيد الملكة ، وذلك كتب النحو المتأخرة التي وجهت كل همها وسدنها لصناعة الإعراب وحدها ، فهي محشوة بالتشقيق والتفريع والجدل العقيم ، وهي في الوقت نفسه عارية عن كلام العرب شعرا ونثرا ، فدارسو هذه الكتب — كما يقول — يحسبون أنهم قد حصلوا على رتبة في لسان العرب وهم أبعد الناس عنه .

وبعد أن يطبق الرجل نظرته على كتب النحو في الأندلس والمغرب وأفريقية يقلب يديه في أسف ليقول :

« فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل وبعدت عن مناحي اللسان وملكته ، وما ذلك إلا لعدولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه وتميز أساليبه وغفلتهم عن المران في ذلك للمتعلم ، فهو أحسن ما تفيده الملكة في اللسان ، وتلك القوانين إنما هي وسائل للتعليم ، لكنهم أجروها على غير ما قصد بها وأصاروها علما بحتا ، وبعدوا عن ثمرتها »

أخيراً : فإن خلاصة الموقف تجاه ما في كتب النحو أن الداعين للتجديد قديما وحديثا نظروا فيما حوته من « قوانين النحو » لمعرفة ما يخدم منها اللغة وما يخدم منها المنطق والجدل ودارت جهودهم في هذا الإطار وحده .

أما ابن خلدون فلا شأن له بهذه القوانين ، فهي — في رأيه — لا تنفع

حكمة اللسان ولا تضرها ، وأن ما يخدم اللغة منها هو ما يحوى جملة كبيرة من النصوص التى تساعد على تكوين الملكة ، أما ما فى هذه الكتب — — أسماء وقوانين المنطق العقلية والعلم البحث والجدل ، فهى أمور بعيدة كل البعد عن مناحى اللسان وملكته .

هذه نظرة عالمنا العبقرى لكتب النحو ، فهلا توقف عندها المشتغلون به الآن . سافيين ومجددين ، دارسين ومدرسين — لمراجعة أنفسهم فى جدوى ما يشقون به عليها فى « صنعة الإعراب وجدله » ثم ما يحصلون عليه بعد ذلك من جنى مر وثمر قليل ١١ — إن أضعف الإيمان — فى رأى — هو الإفادة من هذا رأى لتوجيه الاهتمام فى كتب النحو للعناية فيها بالنصوص الراقية الاصلية والأمثلة المتطورة الجميلة .

تحصيل اللسان العربى للعرب والأعاجم

يحدد صاحب القاموس « الأعاجم » بقوله : والعجم بالضم وبالتحريك خلاف العرب ، و « الأجم » من لا يفصح كالأعجمى ، والعجمى : من جنسه العجم وإن أفصح .

ويدل هذا التحديد على عنصرين يتعلقان بالأعاجم هما « النسب واللغة » فهم — كما قال — خلاف العرب سواء أكانوا أجانبا تماما أم كانوا مخطئى النسب ممن اشتهروا فى تاريخنا اللغوى باسم « المولدون » وهم ما أطلق عليهم الجاحظ اسم « النائثة » — ومن حيث اللغة ، فإنهم — كما قال — لا يفصحون بالمرءة ، لأن لهم لغة أخرى غير العربية أو يفصحون لكن أنسابهم غير صريحة فى العرب . ويمكن أن يفهم من هذا التحديد — بصورة عامة — أن الأعاجم صنفان : صنف أجنبي تماما عن العرب فى نسبه ولا يعرف العربية ، فهو « لا يفصح »

وصنف آخر مولد أو ناتئة وهو يتكلم العربية ، فهو أيضا د عجمي وإن
أفصح ،

وهذان الصنفان قد وجدا بين العرب على مدى العصور حتى العصر الذى
نعيش فيه .

ولقد كان لعلماء اللغة العرب الأقدمين موقف من كلا الصنفين لا يوافقهم
عليه تماما علماء اللغة العربية المحدثون بكل أبعاده .

ويتلخص هذا الموقف للأقدمين فى أنهم ربطوا بين د اللغة والعنصر ، ربطا
قويا ، فاللغة للعربى الصريح النسب أو د القح ، — كما يسمونه — لغة أصيلة
نقية موثوق بها ، أما الاجنبى تماما عن العرب أو المولد ، فلغته مصنوعة مخالطة غير
أهل للثقة — هذا المعنى السابق ملحوظ جيدا فى القرن الاول الهجرى الذى حدثت
فيه نشأة النحو ، وكثير من الروايات التى سبقت عن هذه النشأة تدل على مدى
ما كان للأجانب من دور فى تلك النشأة ، إذ كان بين العرب كثير منهم لم ينشأوا
على العرف العربى لحدث منهم التحريف فى نطق الأصوات واللكنة فى نطق
الحروف والتخليط فى نطق الجمل وشكل أواخر الكلمات مما أطلق عليه اسم
د اللحن ،

ثم جاء الاختلاط الاجتماعى الهائل فى القرن الثانى الهجرى بين د الأعاجم
والعرب ، وفى بداية العصر العباسى الأول — وعلى امتداده — كثر الأعاجم
بين العرب وخالطوهم فى الأمصار والحضر ومواطن الخصب بحكم عوامل
اجتماعية وسياسية لا قبل لأحد بدفعها ، وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم د المولدون .
وقد انصرف علماء اللغة عن الأخذ منهم بالرحلات للبادية للبحث عن العرب
الخلص ونطقهم ، واختاروا منها مواطن الفصاحة مما أطلق عليه بين الدارسين
د قبائل الاستشهاد ،

* من كلام الجاحظ : إن المولد لا يؤمن عليه الخطأ ، إذ كان دخيلاً في ذلك الأمر ، وليس كالأعرابي الذي إنما يحكى الموجود الظاهر له الذى عليه نشأ وبمعرفته غذى (١) .

أما علماء اللغة العرب المحدثون فإنهم يرفضون هذا الموقف في الربط بين «العنصر واللغة» فاللغة لا علاقة لها بالعنصر ، بل بالاكساب والعرف والنشأة والمربي (٢) .

لسكن .. كان لابن خلدون موقف آخر ، أساسه قصور الاعاجم عن تحصيل «الملكية اللسانية» ومؤداه تأييد علمائنا الأقدمين في موقفهم من كل من الاعاجم والعرب نظراً وممارسة في الاستشهاد والاحتجاج .

ويقيم ابن خلدون نظريته تلك على الاسس التالية :

اولاً : أن الاعاجم الداخلين في اللسان العربى وكانت لهم لغة أخرى وهم مضطرون للنطق بالعربية من مفرد ومركب يحصلون العربية ممن يخاطبونهم من العرب وهؤلاء لا يملكون — حين تأخر الزمن — ملكة اللسان المطلوبة ، فقد ذهبت عنهم وبعدها عنها ، فليس لديهم وسائل لإجادة العربية ممن يخاطبونهم من العرب .

ثانياً : إذا لجأ هؤلاء الداخلون في اللسان العربى إلى تحصيل الملكة بما أسماه «القوانين المسطرة في الكتب» فإنهم لا يحصلون على إجادة اللسان ، بل يحصلون على أحكامه فقط .

(١) الحيوان ١٨٣/٤ .

(٢) انظر : الرواية والاستشهاد باللغة ص ١٧٥ و ٢٧٤ .

وفي كلتا الحالتين السابقتين يبقى هؤلاء الأجانب خارج دائرة اللسان العربي
المفصّل الصحيح ،

ثالثاً : إذا لجأ هؤلاء الأعاجم لتحصيل الملكة بالتعلم من كلام العرب شعراً
ونثراً ، فإنهم يحصلون على هذه الملكة ، لكنهم — كما يقول — تجيء ناقصة
أو مخدوشة ؛ لأنه قد سبق لهم ملكة أخرى للغاتهم الأصلية ، وهذه تعوق تمام
الملكة الجديدة ، فيفترقون في ذلك عن العرب الأصلاء .

رابعاً : وليتكلم ابن خلدون بنفسه : إن فرضنا عجمياً في النسب سلم من مخالطة
اللسان العجمي بالسكّانية ، وذهب إلى تعلم هذه الملكة بالمدارس ، فربما يحصل له
ذلك ، لكنه من الدور بحيث لا يخفى عليك بما تقرر .

فالوسائل المتاحة للأعاجم — والحديث هنا عن الأجانب تماماً — لا تحصل
بها الملكة التامة ، فإذا حصلت ، فإنها تكون ناقصة مخدوشة لمن سبقت له ملكة في
لغة أخرى ، ثم يحاول تعلم العربية من النصوص ، أما من لم يسبق له فإنه قد
يحصلها تامة ، لكن ذلك أمر نادر الحدوث — فإذا نقلت هذه الصورة بكل أبعادها
لمن عاصروا علماء اللغة العرب الأقدمين من الأعاجم ، وقت دراسة اللغة
والاستشهاد بها ، كان لهؤلاء العلماء كل الحق أن يتجنبوا الأخذ بلغة هؤلاء لدرسها
والاستشهاد بها على قواعد العربية .

أما من أطلقوا عليهم اسم « المولدين » ، فإن العصر الذي كثر فيه جمعهم في
الحواضر — منتصف القرن الثاني الهجري — لا يختلف الأمر فيه بالنسبة لهم
عن هذه الصورة نفسها التي قدمها ابن خلدون للأجانب تماماً عن اللغة ، فالوسائل
هي نفس الوسائل والنتائج هي نفس النتائج .

لذلك : كان لعلماء اللغة العرب الحق أيضاً أخذاً بالتحرز والاحتياط وسداً
للذرائع أن يديروا ظهورهم لهؤلاء المولدين ، تماماً كما أداروها للأجانب الخالص

ورحلوا إلى البادية متحملي مشقة السفر وشظف العيش ومرارة البعد عن الأهل والديار ، ليحصلوا على لغة العرب الثقية الخالصة من تخليطات الأعاجم وورطاتهم ولحنهم .

وقد أشار ابن خلدون إلى موافقته على هذا المسلك اللغوي المفيد لعلمائنا الأقدمين بقوله :

« لهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها ، لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ، ثم من اكتشفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبنى كنانة وغطفان وبنى أسد وبنى تميم - وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة ، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم - وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية .

ورحم الله ابن خلدون ، فقد هدانا بعقله الكبير المستنير على سبيل الإنصاف والتقدير لعلمائنا الأقدمين في موقفهم المتحرز المحتاط من مادة اللغة ، ليحصلوا منها على ما يتحقق فيه الأصالة والنقاء ، وقد تحملوا في ذلك المشقة والعناء .

المراجع كما وردت في البحث

- | | |
|------------------------------------|------------------|
| ١ — مقدمة ابن خلدون — الجزء الرابع | ابن خلدون |
| ٢ — البيان والتبيين — الجزء الأول | الجاحظ |
| ٣ — من أسرار اللغة | د. ابراهيم أنيس |
| ٤ — الرد على النحاة | ابن مضاء القرطبي |
| ٥ — اللغة بين المعيارية والوصفية | د. تمام حسان |
| ٦ — أصول النحو العربي | د. محمد عيد |
| ٧ — الحيوان — الجزء الرابع | الجاحظ |
| ٨ — الرواية والاستشهاد باللغة | د. محمد عيد |

ملكة الشعر ولغتها في تصور ابن خلدون

(١)

يقول ابن خلدون « الملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر ، ويوضح ذلك بقوله .
« اعلم أن لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطاً ، أولها الحفظ من جنسه ، أى :
من جنس شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها ، ويتخير
المحفوظ من الحر النقي الكثير الأساليب ... ثم بعد الامتلاء من الحفظ . وشحذ
القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم ، وبالإكثار منه تستحكم ملكته
وترسخ (١) »

ويفهم من هذا النص السابق أن ابن خلدون يعتبر الشعر « ملكة صناعية » .
ويصف الكيفية التي تحصل بها هذه الملكة ، أو بعبارة أخرى : تصنع بها هذه
الملكة ، والطريقة — في رأيه — تبدأ باختيار ما يحفظ من شعر العرب ، ثم
حفظه — وبكثرة الحفظ تنشأ الملكة التي شبهها بالمنوال الذي ينسج عليه — ثم
يقبل بعد على النظم ، وبممارسته وتوالى هذه الممارسة تستحكم الملكة وترسخ .

هكذا يتصور الرجل الاستعداد لقول الشعر ، عمل مكتسب من بدايته إلى نهايته .
قوامه الاختيار والحفظ فالملكة بالممارسة فالتمكن ، وهكذا يمضي مع فهمه للملكة
إلى نهاية الشوط ، إذ طبق فهمه لها بنجاح وتوفيق في تحصيل اللغة على مستوى
الصحة وعلى مستوى البلاغة ، وهنا أيضاً في الشعر يلتزم نظرته نفسها ، باعتبار

الشعر ملكة صناعية تتعلم بالتعود والتكرار وتوالى التكرار ، لتحدث الصفة ثم الحال ثم الملكة — كما هو كل منهجه .

لكن .. هناك جانب مهم في قول الشعر يعز احتواؤه في نظرة ابن خلدون وصناعته ، لأنه خارج عن الصنعة والاكتساب ، ولا يمكن حده في إطار هذا الطريق المرسوم ، هذا الجانب هو « موهبة الشعر » ، ذلك الإشعاع الإلهي — غير المنظور وغير المصنوع — الذى يهجس في أعماق الشاعر بما يقول ، ويطلعه على عوالم غريبة من السحر والصور والظلال والألوان لا يراها غيره ، هو وحده بحساسيته ورهافته وشفافيته يمكنه السيطرة على تلك العوالم الباهرة وتقييدها في الأوزان والصور ، ثم إطلاقها غناء جميلاً عذبا نسميه « الشعر » .

لو كان الأمر فقط كما حسب ابن خلدون ، لصح أن كل رواة الشعر في القديم — ومعظمهم كانوا يحفظونه — يعدون من الشعراء ، ولكان الطريق للشعر ممكناً لدى كل من يريده ، فما عليه إلا أن يعكف على دواوين الشعراء ينتقى منها جملة صالحة يحفظها حفظاً ، وبعدها يقرض الشعر ، وسيجده طوع يديه وملكته !!

لكن واقع الأمر لا يصدق ذلك ، كما لا تصدقه الملاحظة الموضوعية في تاريخنا الأدبي القديم والحديث ، فما كل من روى الشعر وحفظه صار شاعراً وقديماً فرق الأقدمون بين رواية الشعر ودرايته ، بين حفظه وإجادته ، بين تعلمه وموهبته — فلنطالع هذه الروايات الدالة :

• قال الوليد بن يزيد الأموي يوماً لحاد الراوية : كم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال : كثير !! ولكن أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام — ويقال : إنه قد فعل (١) .

• عن المازني قال : قلت للأصمعي : إنك لتحفظ من الرجز ما لا يحفظه أحد !! فقال : إنه كان همنا وسدمننا (١) (سدمننا : حرصنا الشديد)

• ويقول القفطي عن محمد بن القاسم الأنباري : كان يحفظ — فيما ذكر — ثلاثمائة ألف بيت من الشعر شاهدة في القرآن ، وكان يملئ من حفظه لا من كتاب (٢)

ودلالة هذه الروايات الثلاث فيما نحن بصدده أن هؤلاء الثلاثة — حماد والأصمعي والأنباري — لم يشتهروا في تاريخنا الأدبي بأنهم شعراء مجيدون أو غير مجيدين من هذا المحفوظ الضخم من شعر العرب — قصيده ورجزه — وقصارى ما وصل إليه حماد أنه استطاع محاكاة بعض الشعراء الأقدمين في قصائد غير محددة وغير مميزة خلط في نسبتها إلى بعض الشعراء وإفساد نسبة الشعر بها ، ولكنه لم يكن ذا شاعرية مستقلة لها تميزها الفنى وطعمها الخاص ، ولم يغنه محفوظه الكثير من الشعر شيئا كما لم يغن غيره من الرواة .

إن الشاعر الذى يستحق هذا الاسم هو من امتلك بالفطرة والخلقة موهبة الشعر وقوامها الرهافة الموسيقية والإحساس العميق بجوهر الناس والأشياء مع المقدرة على النفاذ إليها ، وأن يكون له عالمه الخاص الذى تموج فيه الرؤى والنصيرات .

ثم لا بد له مع ذلك من جانب الاكتساب ، بمعرفته الواسعة العميقة بثقافة عصره وسلوك بيئته ، وما يحدث في هذا العصر وتلك البيئة من تجارب وأحداث وأيضاً الاكتساب اللغوى الذى يساعده على إجادة فنه الشعرى وقوة نسجه .

(١) مراتب النحويين ص ٥٧ .

(٢) إنباه الرواة ج ٣ ص ٣٠٢ .

وفرة مادته من الالفاظ والاساليب — وهذا الجانب الاخير هو الذى اهتم به ابن خلدون .

فحديثه عن « ملكة الشعر » هو فى واقع الامر حديث عن اكتساب المهارة اللسانية لقول الشعر ، وأدار حول هذا الجانب اللغوى وحده كل آرائه ، وأغفل جوانب أخرى خطيرة لازمة للشعر والشاعر وهى : الموهبة والوعى .

ويبدو أن الرجل اعتقد أن ما ذكره عن اكتساب « ملكة الشعر » بالحفظ كاف فى صنع الشاعر المجيد ، وساعده على هذا الفهم نظرتة كلها عن « الملكة اللسانية » وظن أن تطبيقها ممكن على الشعر كما انطبقت على مجرد الكلام الصحيح أو البليغ ، لكن الشعر له جوانب أخرى — كما سبق القول — تسبق النطق وتخلقه وتوجهه ، وقد أغفل تلك الجوانب فدارت آراؤه حول الجانب اللغوى وحده ، وهو الذى سنعرض فهمه له وعناصر هذا الفهم فى مستويين .

١ — تصويره لملكة الشعر وتحديد له .

٢ — مجموعة من الآراء التى بنيت على فهمه للشعر وملكته .

(٢)

هناك ما يطلق عليه ابن خلدون « سلوك الاسلوب عند أهل هذه الصناعة » ويقصد به الوصف العملى لأسلوب الشعر عند الشعراء — أهل هذه الصناعة — أو بعبارة أوضح : الطريقة الصناعية التى ينسبك بها الاسلوب ويسك فى ذهن الشاعر ، ليخرج عملة شعرية صالحة للتعامل فى دنيا الشعر .

فى شرح هذه الفكرة فى « المقدمة » ، تتردد مصطلحات أربعة هى (أصل المعنى — كمال المعنى — الوزن — الصورة الذهنية)

والمقصود من « أصل المعنى » الدلالة العرفية الصحيحة للغة وما تقتضيه من معان صحيحة للكلمات ونطق صحيح للكلام من حيث تأليفه وإعرابه .

وأما « كمال المعنى » فهو خواص الكلام البلاغية ومطابقتها لمقتضى الحال و « الوزن » معروف جيداً ، بالتزام الشعر البحور والقوافى كى تصح موسيقاه ويعلق ابن خلدون على هذه الثلاثة بقوله « فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية » ثم يحدد مقصده من « خروجها » بأنها ليست هى هذه الصناعة ، لكنها شرط فيها لا تتم بدونها ، فهى إذن بما يطلق عليه فى دراسة اللغة الآن من « العوامل ذات الصلة »

أما المصطلح الرابع « الصورة الذهنية » فهو الذى بنى عليه صنعة الملمكة الشعرية كاملة .

وإذا صح أننى فهمت كلامه — سأذكره بنصه بعد — فإنه يقصد أن هذه « الصورة الذهنية » تخيل ذهنى منظم متكامل الخطوط والحدود لكل فن من فنون الشعر ، يحدثه التأمل الطويل للشعر الذى قاله الشعراء عنه من قبل ، أنها — كما قال هو — قالب يرص الكلام فيه أو منوال ينسج عليه ، يتحقق به الوفاء بصنعة هذا الفن كما مارسها فرسانه من شعراء العرب من قبل .

ولتقريب الموضوع — إن لم يجانبني الصواب فى فهمه — أن هذه الصورة الذهنية للشعر تماثل التخطيط الذى يضعه « مهندس المعمار » لبناء البيت على النمط العربى أو الرومانى أو المملوكى أو الأوروبى ، فهو تخطيط متصور مقدور الحدود والأبعاد ، وأساس ذلك كله هو المبانى الفعلية التى نفذت من قبل ، أخذت منها الصورة الذهنية المتكاملة المحدودة التى تخطط على الورق ، ثم تنفذ فى واقع الحياة .

فليتحدث ابن خلدون بنفسه :

• يرجع — سلوك الأسلوب عند أهل هذه الصناعة — إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص ، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ، ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال ، ثم ينتقى التراكيب الصحيحة عند العرب — باعتبار الإعراب والبيان — فيرصها فيه رصا كما يفعله البناء في القالب أو النساج في المنوال ، حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه (١) .

فقد استحال الأسلوب الشعري إذن إلى صورة ذهنية وانتزاع من التراكيب وقالب يرص فيه الكلام ومنوال ينسج عليه — وكلها لوازم صنعة الملكة الشعرية ١١ والملكات كلها — في رأيه — صناعة ، وما بهذا الجفاف — بل الجفاء — وقصان الحديد والحسم الذهني الحاد الشامل يفهم أسلوب الشعر ، وأين هذا العموم والشمول والتحديد الذهني من العبارة التي تقول الرجل الأسلوب ، والشاعر رجل متميز ، فهو أيضا الأسلوب ، فلكل شاعر تميزه وطعمه الخاص الذي ينعكس على أسلوبه الشعري ، وبحسنا عن أسلوبه يجب أن يبدأ به هو ، بمقدرته وموهبته ومزاجه ومذاقه وشخصيته ، ومن ذلك وبه — قبل أي شيء آخر — يتحدد أسلوبه وطريقته وقيمته في عصره وفنه .

إن ابن خلدون — كما سبق القول — منطقي مع نفسه في نظراته لصناعة الملكة وتطبيقها على أسلوب الشعر وتصوره ، لكنه لم يكن منطقيًا مع الشعر نفسه .

فلنتقدم خطوه أخرى لنقف أمام تعريف ابن خلدون للشعر .

درجت كتب العروض والادب واللغة على تحديد الشعر بأنه « الكلام الموزون المقفى قصداً » وهذا التعريف يتجه في التمييز بين الشعر والنثر إلى الشكل العروضى الذى يلتزمه الشعر العربى ، من توالى مقاطع الكلام على طريقة خاصة تتكون منها كميات نغمية تتكرر عدة مرات لتؤدى الإيقاع الموسيقى الذى هو أهم خصائص الشعر .

و « القافية » المأخوذة في هذا التعريف تشرحها كتب العروض شرحاً وافياً ببيان نظامها وشروطها ، وكأنما هى وقفة موسيقية فى نهاية البيت ، يبدأ بعدها التدفق الموسيقى من النغمات والإيقاعات التى تصنعها التفاعيل فى البيت الذى يليه .

وتقييد مفهوم الشعر « بالقصد » يبدو أنه من زيادات المتأخرين ، وأن الدافع له دبنى لا علمى ، لكىلا يدخل فى الشعر بعض آيات القرآن والاحاديث التى جاءت موزونة عفواً ودون قصد .

فإذا يقول ابن خلدون !!

لم يعجبه هذا التعريف ، فرفضه ، لأنه يتجه للشكل العروضى وحده ، وقد اعتبره — كما سبق بيانه — من لوازم الملكية وليس من عناصرها الأساسية ، وقدم تعريفاً بديلاً له بقوله :

« الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والالوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن والروى ، مستقل كل جزء منها فى غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجارى على أساليب العرب المخصوصة به (١) .

ومن البين من تأمل هذا التعريف أن مفهوم الشعر عنده يقوم على أركان أربعة هى :

(١) المقدمة ٤/١٢٩٥ .

(فى اللغة ودراستها — ٣)

١ — الكلام البليغ المبني على الاستعارة والالوصاف

٢ — المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي

٣ — كل جزء مستقل في غرضه ومقصده

٤ — الجارى على أساليب العرب المخصوصة به

والعنصر الثانى من مفهومه للشعر هو ما قال — ويقول — به علماء العروض قبله وبعده ، والعنصر الأخير يرتبط بفهمه لمسلك أسلوب الشعر عنده وكيفية اكتسابه وتصوره .

والجديد فى هذا التحديد العنصران الأول والثالث .

فوصفه الشعر « بالكلام البليغ المبني على الاستعارة والالوصاف ، وصف جيد بالمفهوم الحديث ، لأن مجرد الوزن والقافية لا يتحقق به مفهوم متكامل للشعر ، وإلا اندرج تحته السرد الغث والكلام التقريرى المباشر ما دام موزونا مقفى ، ولكى يستحق الكلام وصف الشعر لا بد فيه من « البناء بالصور ، بتعبيرنا الحالى ، أو « الكلام البليغ المبني على الاستعارة والالوصاف ، كما يقول ابن خلدون .

أما تحديده للشعر بأن « يستقل كل جزء منه فى غرضه ومقصده ، فقد وضع ما يعنيه من ذلك بقوله « إن الشعر لا تكون أبياته إلا كذلك ، وهى فكرة غير جيدة وغير مفيدة ، إذ مقتضاها أن القصيدة مجموعة أجزاء مفرقة الأغراض والمقاصد بحسب كل بيت فيها ، وهذا غريب !! وأغرب منه أن يكون هذا قيذا فى تعريف الشعر وأن يكرره ابن خلدون — وهو من هو فى مكانته وفهمه — فى أكثر من موضع من آرائه حول مفهوم الشعر وملكوته ، إذ يقول فى موضع آخر « وينفرد كل بيت منه — الشعر — بإفادته فى تراكيبه ، حتى كأنه كلام

وحده مستقل عما قبله وما بعده ، وإذا أفرد كان تاما في بابه في مدح أو تشييب
أو رثاء (١) .

هذه الفكرة نفسها فتحت بابا واسعا للمتبحرين في عصرنا الحاضر على الشعر
العربي القديم بالقول بأنه شعر مفكك الاوصال متناثر المعاني محطوم الوحدة
بل كانت هذه الفكرة نفسها مستندا لأصحاب الشعر الحر وقائله وسبيلا لمهاجمة
الشعر الموزون المقفى كلية .

واست بصدد مناقشة هذه الفكرة الآن — ويبدو لي أنها غير صحيحة على
إطلاقها — فإن الذى أنا بصددده هو تفسير رأى ابن خلدون في الشعر ، وهو في
هذا التعريف الذى ساقه — الحسن منه وغير الحسن — منطقي مع نفسه ، لأنه
يشرح صنعة الملكة فقدم ما رآه من مظاهر تلك الصنعة الشعرية في تلك العناصر
الأربعة ، لكنه لم يأخذ في اعتباره — كما سبق — ما وراء الصنعة من أعماق
الشعور وتجربة الشاعر النفسية والعاطفية وبناء قصيدته المتناسك الموحد حول
تلك المشاعر والعواطف ، ولو أخذ ابن خلدون هذا الاعتبار في فهم الشعر ومفهومه
عنه لما قدم من عناصر الشعر هذا القيد المعيب .

(٣)

هكذا تصور ابن خلدون ملكة الشعر في صنعها وصناعتها ، أو في تكوينها في
الذهن ومظهرها في الشعر ، وقد تناثر حول هذا التصور مجموعة من القضايا المهمة
في حديث الشعر وأسلوبه هي :

١ — شعر الإسلاميين أفضل من شعر الجاهليين

٢ — نظم الشعر للألفاظ لا للمعاني

٣ — المطبوع والمصنوع في أداء الشعر

والهدف عرض رأيه عن كل هذه القضايا الثلاث مع تفسير هذا الرأي ببيان قيمته بقدر ما يؤدي إليه جهدى واجتهادى وموقفى المتواطع بجانب هذا العملاق الرائد « ابن خلدون »

١ — شعر الاسلاميين أفضل من شعر الجاهليين

المشهور بين الدارسين للغة في وقتنا الحاضر أن النقاد العرب الأقدمين من رواة الشعر وصيارفته يكاد رأيهم يجتمع على أن شعر الجاهليين أرق وأقوى من شعر من تأخر عنهم من شعر الإسلاميين والعباسيين سواء من ناحية صحة اللغة أو بلاغتها ، وكان لهذه النظرة تأثيرها البعيد المدى في مسلك هؤلاء العلماء تجاه الشعر العربى خاصة — واللغة عامة — من حيث الاستشهاد به على القواعد أو من حيث أسلوبه — مما لا مجال هنا لتفصيله .

● من المشهور عن أبى عمرو بن العلاء وقد سئل عن المولدين — هم في رأيه غير الجاهليين والمخضرمين — ما كان من حسن فقد سبقوا إليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم ، ليس النمط واحداً ، ترى قطعة ديباج وقطعة مسح وقطعة نطع (١)

● قال أبو حاتم : قلت للأصمى : فخرير والاخلطل — يسأل عنهما مع غيرهما — قال : هؤلاء لو كانوا في الجاهلية كان لهم شأن ، ولا أقول فيهم شيئاً ، لأنهم إسلاميون (٢)

(١) العمدة في صناعة الشعر ونقده ج ١ ص ٥٦ .

(٢) فحولة الشعراء ص ٢٣ .

• روى المرزبانى قول ابن الاعرابى : إنما أشعار هؤلاء المحدثين — مثل
أبي نواس وغيره — مثل الريحان يشم يوما ويذوى فيرمى به ، وأشعار القدماء
مثل المسك والعنبر كلما حركته ، ازداد طيبا (١)

هذه الروايات الثلاث السابقة نماذج لكثير غيرها وردت عن علماء اللغة
الأقدمين ، وكانت هذه الآراء نفسها — فى عصرها — هى المعتقد بها فى نقد
الشعر — وكان فى مجموعه نقدا لغويا — وتدل هذه الآراء على أنهم يفضلون
القديم بصورة عامة ، والقديم الجاهلى بصورة خاصة .

أما ابن خلدون فله رأى آخر ، إنه — كما هو شأنه — لا يقلد غيره ، وهو
فى الوقت نفسه يلتزم نظريته فى شأن الملكات وصناعاتها ، وعلى هذين الأساسين
جاء رأيه الذى قرر به أن كلام الإسلاميين فى نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة
وأصفى رونقا من أولئك — الجاهليين — وأرصف مبنى وأعدل تثقيفاً ، (٢)
فشعر حسان بن ثابت وعمر بن أبى ربيعة والحطيئة وجريز والفرزدق ونصيب
وذى الرمة والأحوص وبشار أرقى وأقوى من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم
وزهير وعلقمة وطرفة .

والسبب الذى دعاه إلى اطراح هذا الرأى التقليدى السائر بين المقلدين من
تفضيل الجاهليين على غيرهم يعود — كما قلت — إلى حرية عقله من جهة ،
والتزامه نظريته فى شأن الملكة من جهة أخرى ، والملكة اللسانية التى نشأ عليها
الإسلاميون تأثرت بأقوى كلام وأبلغه ممثلاً فى القرآن والحديث ، فولج
— كما يقول — فى قلوبهم ، ونشأت على أساليبيهما نفوسهم ، فارتقت ملكاتهم
على ملكات من قبلهم .

(١) الموشح فى مأخذ العلماء على الشعراء ص ٢٤٦ .

(٢) المقدمة ١٣٠٦/٤ .

هذا رأيه يقرره في عبارة أخرى تقريراً حاسماً بقوله «كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية في منظومهم ومنشورهم» فماذا يكون الأمر لو تصورنا أن «أبا عمرو بن العلاء» قد سمع مثل هذه العبارة من ابن خلدون مع ما هو مشهور عنه من التفضيل المطلق لشعر الجاهليين ، لترك الأمر للقارىء ، ليتخيل هذا المشهد الطريف ما شاء له الخيال !!

٢ - نظم الشعر للألفاظ لا للمعاني

شغلت قضية اللفظ والمعنى جانباً مهماً من النقد العربي القديم ، فقد انحاز إلى جانب المعنى وحده من يعتد بهم من النقاد العرب كأبي عمر الشيباني والآمدي وابن سنان الخفاجي ، كما انحاز إلى جانب اللفظ وحده آخرون على رأسهم الجاحظ وقدامة بن جعفر ، وسوى فريق ثالث - كبشر بن المعتمر وابن قتيبة - في الأهمية بين كل من اللفظ والمعنى .

وليس من المفيد أن تناقش هذه القضية هنا ، فقد شبعنا نقاشاً في القديم والحديث ، كما أنه ليس من المفيد أن نفصل موضع ابن خلدون بين هذين الطرفين ، فقد وضع نفسه وضعا منحازاً تماماً إلى جانب الألفاظ ، وعنوان الفصل السابع والخمسين من مقدمته هو (فصل في أن صناعة النظم والنثر إنما هي في الألفاظ لا في المعاني (١))

لكن المفيد حقاً أن حديثه عن هذه القضية جاء تأكيداً تاماً لفهمه للملكة الشعر ، كما أنه في الوقت نفسه تأكيد لما فهمناه نحن عن فهمه - وإليك التوضيح .

(١) راجع : المقدمة ٤/١٣٠٢ .

إن ملكة الشعر — في رأيه — صناعة بحتة شأن كل الملكات ، ويقول هنا « إن الصانع الذى يحاول ملكة الكلام فى النظم والنثر إنما يحاولها فى الألفاظ » وملكة الشعر — فى نظره — تحصل بحفظ جملة صالحة من كلام العرب شعرا وهذا أمر منسوب إلى اللسان ، ويقول هنا « والذى فى اللسان والنطق إنما هو الألفاظ ، وأما المعانى فهى فى الضمائر »

وقد فهمنا عنه أنه لم يأخذ فى اعتباره أمرين فى غاية الأهمية للشاعر هما « الموهبة والوعى » ، ولو أخذ ذلك فى اعتباره لاهتم بالمعانى والمشاعر ، وهو هنا يؤكد هذا الفهم عنه بقوله « والمعانى موجودة عند كل واحد وفى طلوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى ، فلا تحتاج إلى صناعة ، وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة »

ثم يدال على رأيه بتجسيد الموضوع فى صورة حسية ، صورة « الألوان » التى يغترف بها الماء ، فهى ذهب أو فضة أو صدف أو زجاج أو خزف والماء واحد .

لكن هذا التمثيل فى الحقيقة لا يشهد له ، لأن الماء قد يكون ملحا أجاجا وقد يكون أسنا وقد يكون عذبا ، قد يكون رائقا وقد يكون كدرا ، فكما أن الألوان تختلف كذلك يختلف الماء ، وكما أن الألفاظ تختلف ، فالمعانى أيضا تختلف ، وكل منهما لا يقل أهمية عن الآخر ، لكن ابن خلدون — وقد جمل الشعر صناعة مقننة تسكتسب — سار فى الطريق إلى مداه مع أن قضية اللفظ وحده والانحياز له خاسرة بمقياس الشعر الحقيقى والفكر الناضج كليهما ، ورحم الله أحد نقادنا القدامى حيث قال : « وقد رأيت جماعة من متخلفي هذه الصناعة يعملون مهمهم مقصوراً على الألفاظ التى لا حاصل وراءها ولا كبير معنى تحتها ، وإذا أتى أحدهم بلفظ مسجوع — على أى وجه كان من الغثاة والبرد — يعتقد

أنه قد أنى بأمر عظيم ، ولا يشك في أنه صار كاتباً مفلحاً ... فقاتل الله القلم
الذى يمشى في أيدي الجهال الأغمار ،

وسواء أكان القلم في أيدي الجهال الأغمار أو أدباء الصنعة والإنشاء ، فإن
اعتبار اللفظ وحده في الشعر قد ينزلق به إلى « بهلوانية » فجأة ونظم غث وبراعة
لغوية قوامها التفتيح والتهويل والتشويق بكلام موزون مقفى لا فائدة فيه ولا معنى
وراءه ولا نتيجة له .

٣ — المطبوع والمصنوع في أداء الشعر

يتدرج أسلوب الشعر أو أداء الشعر — في رأى ابن خلدون — تحت وصفين
هما : المطبوع والمصنوع .

وليبيان معنى إطلاق هذين الوصفين على أداء الشعر ذكر ثلاثة مصطلحات
هى (إفادة المعنى — كمال الإفادة — التحسين والتزيين)

لقد عاود الحديث عن المصطلحين الأولين هنا بعد ما ذكرهما من قبل في
حديثه عن « الصورة الذهنية » لصنعة الملكة ، فقرر ثانية أن « إفادة أصل المعنى ،
يكون بصحة اللغة واستيفاء شروطها وأحكامها التى هى جل قوانين العربية فى
إسناد التراكيب — ويحيط بهذا الإسناد معان خارجة عن أصله تستفاد من
التقديم والتأخير والتعريف والتشكيك والإضمار والإظهار — أبحاث علم المعانى —
وكذلك ما يستفاد من انتقال الذهن بين المعانى بالدلالات المختلفة للتشبيه
والاستعارة والكناية — أبحاث علم البيان — وهذا كله يحقق ما أسماه « كمال الإفادة »

وإذا لم يتحقق للكلام « إفادة المعنى » فهو موات وهمل ولا عبرة به
وإذا لم يتحقق له « كمال الإفادة » كان مقصراً عن مقتضيات البلاغة ، والبلاغة
أصل الكلام العربى وسجيته وروحه وطبيعته .

أما «التحسين أو التزيين» فيسكون بعد تحقق أصل المعنى وكماله ، ويتحقق بضروب السجع والجناس والمطابقة والموازنة والتورية وغير ذلك من المحسنات عما أطلق عليه المتأخرون «البديع» .

فإذا يقصد ابن خلدون إذن من المطبوع والمصنوع في أداء الشعر ؟ !

قال : اعلم أنهم إذا قالوا «الكلام المطبوع» فإنهم يعنون به الكلام الذي كملت طبيعته وبجيبته من إفادة مدلوله المقصود منه .

أما «المصنوع» فهي ضروب التحسين والتزيين التي تأتي بعد كمال الإفادة . فقد يكون الشعر مطبوعا خاليا من الصنعة وهو شعر جميل رائق عذب وقد يكون مطبوعا تضاف إليه الصنعة التي تجميئه عفوا ، فتزيده بهاء وحسنا ورواقا .

لكن ابن خلدون — بعد ذلك — يقف في وجه الصنعة منبها على المدى الذي يجب أن تبلغه في الكلام ، ويحذرا من تجاوز الحد فيها بحيث تجر على أصل المعنى وكماله .

فهو يشترط أولا أن «تقع من غير تكلف» لأن التكلف والمعاناة فيها يصرف جهد صاحبها إليها ، ويؤدي به إلى الغفلة عن مقصوده الأصلي من كلامه .

كما يشترط ثانيا «الإقلال من الصنعة» فالإكثار منها عيب شائن ، ويؤدي إلى القبح الذي لا حسن فيه .

بل يتقدم خطوة أخرى ، فيرى أن أساليب الصنعة من ضروب «التحسين والتزيين» لا تصح في النثر ولا تقبل فيه ، فإن أسامه الترسل والطلاقة والسهولة ، فإذا داخلته الصنعة بالسجع والتقفية والتورية والجناس وغير ذلك من ضروبها أدى به إلى القصور والضعف والتهافت .

بل إنه يرى أن أساليب الشعر عموماً من الأوصاف والأمثال وكثرة التشبيهات والاستعارات لا تناسب النثر أصلاً ، وأن من يتلقون بذلك قاصرون عن الكلام المرسل والتصرف في وجوه وطرقه ، فيلجأون لوجوه الزينة السطحية يجبرون بها هذا القصور !! وليته قال : يجبرون بها الخواء الفكري والإفلاس الذهني ، حيث يحاولون تغطية ذلك كله «بالفهلوة» الفارغة ، والتلاعب بالالفاظ ، ويدارون ضحالة الفكر والشعور تحت ستار الأصباغ الصارخة والمساحيق الزاعقة ، وكلاهما لا غناء فيه عن الجمال الأصيل وبراءته وأسرته .

وبعد

فقد قدم ابن خلدون رأيه عن الشعر وقضاياها كما هداه إليه فهمه والتزامه للملكات وصنعتها ، وهو — بهذه الصفة — رأى قوى أسر محكم ، لكن الشعر لا يدرس في إطار الحدود والأسر والصنعة فقط ، بل له جوانب أخرى خاصة به أهمها تعبيره عن هموم صاحبه ومجتمعه ، وما يحمله من نور الموهبة وطاقات الشعور المواردة في النفس الإنسانية الشاعرة ، وهي متميزة متفردة متدفقة بلا حد ولا صنعة .

مراجع ورد ذكرها في الهامش

- ١ — مقدمة ابن خلدون ج ٤ ابن خلدون
- ٢ — وفيات الأعيان ج ١ ابن خلكان
- ٣ — مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي
- ٤ — إنباء الرواة ج ٣ القفطى
- ٥ — العمدة فى صناعة الشعر ونقده ج ١ ابن رشيق
- ٦ — فحولة الشعراء الأصمعى
- ٧ — الموشح فى مأخذ العلماء على الشعراء المرزبانى

قراءن الحكم وقوانين الاعراب فى فهم ابن خلدون

(١)

يردد ابن خلدون فى حديثه عن اللغة مصطلحات تكاد تكون من لوازمه الخاصة به هى :

- لغة مضر أو اللسان المضرى
- لغة العرب لهذا العهد أو لسان العرب لهذا العهد
- لغة أهل الحضرة والامصار أو عرف التخاطب فى الامصار
- أشعار العرب وأهل الامصار لهذا العهد

وينبغى ابتداء تحديد فهمه وفهمنا لهذه المصطلحات الاربعة لمستويات اللغة ثم معرفة مقصده من هذين التعبيرين «قوانين الاعراب» و «قراءن الكلام» بالتطبيق على مستويات اللغة الاربعة السابق ذكرها تفصيلا — ليتأتى فى النهاية تأصيل هذا الموضوع فى الدراسات اللغوية الحديثة .

أما لغة مضر، فإنه يقصد بها الفصحى المعربة التى وجدت بين العرب الخالص قبل أن تفسد بمخاطبة الاجانب والمولدين ، وهى اللغة التى نزل بها القرآن الكريم ، واحتفى النحاة بدراستها واستنباط قواعدهم منها ؛ فهى منسوبة إلى

« مضر » الجد الاعلى للعرب ويطلق عليها أحيانا « لسان مضر » أو « اللسان المضرى »

أما « لغة العرب لهذا العهد » فيقصد بها اللغة العربية الفصحى التى كانت تستعمل فى عهده هو — القرن الثامن الهجرى — وهى امتداد للفصحى القديمة — لغة مضر — لكن لحقها التغيير فى كثير من مظاهرها فى البنية والإعراب .

و « لغة أهل الحضر والامصار » يقصد بها لغات التخاطب العامية التى تختلف من بيئة لآخرى ، فهى فى المشرق وأمصاره عموما تختلف المغرب وأمصاره عموما ، كما تختلف فى هذين عن الأندلس وأمصاره ، كما أنها تختلف فى كل من المشرق والمغرب والأندلس فيما بينها حسب الامصار والبيئات ، وأطلق عليها جميعا « عرف التخاطب فى الامصار » فى مقابل النوعين الآخرين « لغة مضر » و « لغة العرب لهذا العهد » — وهذه اللغات قد لحقها أيضا التغيير — كما قال — فى الإعراب والتصاريف والاصطلاح .

أما « أشعار العرب لعهد » فهى الأشعار التى كانت شائعة فى الامصار لعهد ، ولم يانزم الكثير منها « لغة مضر » بل استخدمت النوعين الآخرين « لغة العرب لعهد » ولغات التخاطب فى الامصار ، فكان الشعراء يقرضون الشعر — كما يقول — فى سائر الأعاريض على ما كان عليه السلف المستعربون ، وتذكر منه المطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه ، وقد سمي أهل المغرب هذه القصائد « الأصمعيات » نسبة إلى « الأصمعى » راوية الشعر ، وسميها أهل المشرق « البدوى » نسبة للبادية ، وسموا ما تغنوا به منها باسم « الحوراني » نسبة إلى منازل العرب البادية فى أطراف الشام والعراق .

فلندخل إذن لموضوعنا « قرائن الكلام وقوانين الإعراب » الذى تعرض له

ابن خلدون في مواضع ثلاثة من «مقدمته»، وهو يتحدث عن «لغة العرب لهذا العهد»، في الفصل الثامن والأربعين — وتعرض له ثانيا وهو يتحدث عن «لغة أهل الحضر والامصار»، في الفصل التاسع والأربعين — وتعرض له مرة ثالثة في الفصل الحادى والستين وهو يتحدث عن «أشعار العرب وأهل الامصار لهذا العهد (١)»، وسنعرض لجوانب رأيه في هذا الموضوع المثير الخطير تفصيلا من خلال ما ذكره عن هذه المستويات اللغوية السابقة كلها .

(٢)

الاعراب وقوانينه في لغة مضر

يرى ابن خلدون أن الإعراب وجد في اللسان المضرى، وأنه كان يلتزم — كما يقول — طريقة واحدة ومهيما معروفا — لكنه يقرر إلى جوار ذلك ما يلي :

إن هذا الإعراب «بعض من أحكام اللسان» وتفسير عبارته — كما فهمت — أن الإعراب يمثل ناحية واحدة في النطق العربى الصحيح، وأن هذا النطق له جوانب أخرى لا تقل أهمية عن حركات الإعراب في إفادة المعنى، وقد ذكر هو نفسه منها — كما سيأتى — ما أسماه «بساط الحال»، وهى الكيفيات والأحوال فى تراكيب الألفاظ وتأليفها كالترتيب والحذف وغيرهما، ورتب على هذا المعنى السابق ما سيأتى بعد مفصلا فى رأيه عن «لغة العرب فى عهده»، و«لغات التخاطب» .

كما يقرر أمرا آخر مشهورا جدا فى تاريخ العربية عن نشأة النحر وتدوينه

(١) مقدمة ابن خلدون ج ٤ صفحات ١٢٧٠ — ١٢٧٤ — ١٣١٤ على التوالى .

وهو الخوف على القرآن والحديث من اللحن والفساد بمخالطة الاعاجم ، وأن ذلك قد دفع العلماء إلى تدوين أحكام الإعراب حفاظا على القرآن والسنة ، وهما — بتعبيره — أصلا الدين والملة ، فوضعت الأحكام والقوانين واستنبطت المقاييس ، وتحصل لدينا علم ذو فصول وأبواب ومقدمات هو «علم النحو» الخاص بلسان مضر .

لكن ابن خلدون يرتب على ذلك نتيجة خطيرة جداً تضمنتها العبارتان الآتيتان :

• فأصبح — علم النحو — فنا محفوظا وعلما مكتوبا وسلمنا إلى فهم كتاب الله وسنة رسوله وأفيا .

• إلا أن العناية بلسان مضر من أجل الشريعة — كما قلناه — حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء ، وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على ذلك ويدعونا إليه .

فإذا يقصد الرجل — ياترى — بكل ذلك ؟؟

لنرتب ما فهمته من أفكاره هكذا : الإعراب كان في لغة مضر — بتجديدها السابق — ونزل القرآن والحديث بهذه اللغة — ودفع الخوف على القرآن والحديث من الفساد لوضع النحو أو صناعة العربية من أجل الحفاظ عليهما — وصارت هذه الصناعة سلما لهما — وهى تؤدي هذه المهمة بهذا الفهم — لكننا الآن — فى عهد ابن خلدون — ليس عندنا تلك الحاجة التى تحتم علينا التزام الإعراب فى النطق ولا البحث عن استقرائه فى الكلام — وإذن فليبق هذا الإعراب مقتصرًا على مورده وحاجته ، وهى حاجة دينية فى المقام الأول .

هذا كلام خطير دون شك قد يتخذه الدارسون المجددون — بصرف النظر عن المغرضين وأهل الأهواء — مستندا لدعاوهم الجريئة ، إذ يرون أن اللغة

العربية الآن ليست هي اللغة المضربة قديما ، ويجب أن يعترف لها بالتطور والتغيير
وبما لحقه التغيير من مظاهرها الإعراب الذي كاد ينقرض في استعمال العربية
الآن - كما كان الأمر في عهد ابن خلدون - ولا حاجة بنا إليه في النطق ، وإنما
حاجتنا إليه فقط للقرآن والحديث .

لكن الغيورون المحافظون على اللغة الفصحى يتخذون هذا الرأي نفسه مستندا
لقضيتهم ، إذ يرون أن اللغة الفصحى ما زالت هي لغة مضر - لغة القرآن والحديث -
فاللغة الفصحى النموذجية هي ما يماثل هذه النصوص الدينية ، وهذه النصوص
الدينية حملت الإعراب ، واستقرأته صنعة العربية ورجال النحو ، فيجب أيضا
الترام الإعراب في الفصحى التي تماثل وتمثل نصوص القرآن والحديث ، فهذه
ضرورة دينية ولغوية معا .

الإعراب وقرائن الكلام في لغة العرب لعهد ابن خلدون

عنوان الفصل الثامن والأربعين في المقدمة هو (فصل في أن لغة العرب لهذا
العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر وحير) وعلق محقق المقدمة - الدكتور وافي -
في هامش الصفحة على ذلك بقوله : كان الأولى أن يعنون هذا الفصل ، فصل في
الرد على من زعم أن لغة العرب ... إلخ ، لأن موضوع هذا الفصل ليس ييانا
لهذه الدعوى وتأيداً لها ، بل هو رد عليها . انتهى

والحق مع ابن خلدون ، فعنوانه مطابق تماما لما أراد وقرر ، فهو يقصد تماما
هذا العنوان ، وبدقة أكثر : يقصد في هذا العنوان عبارة ، لغة مستقلة ، أما
ما أورده من ردود ومسائل في تقرير رأيه ، فإنه قصد بها توضيح هذا الرأي
والإبانة عنه بطريقة إيراد الاحتمالات والرد عليها .

وعلى كل ، فإنه كشف عن لغة العرب لعهد من ناحيتين :

(في اللغة ودراساتها - ٤)

(أ) ناحية الالفاظ والمعاني والاسلوب
(ب) ناحية فقدان الإعراب والاستعاضة بقرائن الكلام

وبالنسبة للجانب الاول رأى أن اللغة العربية لهذه تستعمل الالفاظ الصحيحة في معانيها الموضوعة لها ، وأنها تؤدي الأغراض والمقاصد بين المتكلمين والسامعين ، وأن أساليبها من النظم والنثر تؤدي بها مقتضيات الأحوال على متطلبات الذوق والبلاغة ، وهي في كل ذلك مماثلة للسان المضرى الذى كان للعرب من قبل ، يقول :

• نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الاولى ، والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه بتفاوت الإبانة موجود في كلامهم لهذا العهد ، وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة في مخاطباتهم (١) .

أما الناحية الثانية - وهم الأهمى - فإنه يقرر أن الإعراب قد فقد من اللغة العربية في عهده ، وأن فقدان هذا الإعراب لم يهدم أداء اللغة لمعناها الصحيح البالغ بل إنه يمكن أن يعتاض عنه بما أسماء قرائن الكلام ، - فلنستمع لابن خلدون في هذا النص :

• لم يفقد منها - لغة هذا العهد - إلا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول فاعتاضوا عنها بالتقديم والتأخير وقرائن تدل على خصوصيات المقاصد ... لأن الالفاظ بأعيانها دالة على المعاني بأعيانها ، ويبقى ما تقتضيه الأحوال ويسمى « بساط الحال » محتاجا إلى ما يدل عليه ، وكل معنى لا بد وأن تكتشفه أحوال تخصه ، فيجب أن تعتبر تلك الأحوال في تأدية المقصود ، لأنها صفاته ،

وتلك الأحوال في جميع الألسن أكثر ما يدل عليها بالفاظ تخصها بالوضع ،
وأما في اللسان العربي ، فإنما يدل عليها بأحوال وكيفيات في تراكيب الالفاظ
وتأليفها من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة إعراب ، وقد يدل عليها
بالحروف غير المستقلة (١) .

ويفهم من هذه العبارة السابقة نصا أمور :

أولا : فقدت اللغة العربية في عهده دلالة الحركات على تمييز الأبواب النحوية
أو بعبارة أخرى : لم يعد للعلامة الإعرابية في أداء المعنى القيمة التي تفصلها كتب
النحو تفصيلا ، وتعطيلها الأهمية والمثالة في نطاق اللغة والحكم بصحتها أو فسادها .
ثانيا : اعتاضت اللغة عنها بما أسماه «القرائن الدالة على خصوصيات المقاصد»
وهذه لمحة ذكية ، لكنها مع ذلك موجزة مختصرة .

ثالثا : تحدث بعد ذلك عما تقتضيه الأحوال أو ما أسماه «بساط الحال»
الذي يحيط بالمعنى لتأديته بصفاته كاملة - وإلى هنا والامر عادي بالنسبة له .

لكن غير العادي في حديثه أن يقرر أن أداء «بساط الحال» يكون في
اللسان العربي بأحوال وكيفيات في تراكيب الالفاظ وتأليفها من تقديم أو
تأخير أو حذف أو حركة إعراب أو الحروف غير المستقلة ، فيخطو بنا خطوة
نحو وضوح أكثر ، فالقارئ هو ما في اللسان العربي من الكيفيات في تراكيب
الالفاظ وتأليفها ، وقد قدم لها النماذج الآتية مع مقابلها بالمصطلح الحديث .

• التقديم والتأخير - وهي قرينة الرتبة

• الحذف - مظهر من قرينة التضام

• حركة الإعراب - قرينة العلامة الإعرابية

• الحروف غير المستقلة - قرينة الأداة

ويجب أن نتذكر أن ابن خلدون يربط في أداء المعنى بين ما سماه « أصل المعنى » و « كمال المعنى » ، وأنهما معا يتكاملان في إفادة المدلول المقصود من الكلام لأنه - كما قال - عبارة وخطاب ليس المقصود منه النطق فقط ، بل يقصد المتكلم به أن يفيد سامعه ما في ضميره إفادة تامة ويدل به عليه دلالة وثيقة ، وهذا الربط في أداء الإفادة يسمح لدارسه أن يضع تلك الكيفيات التي ذكرها عن أداء المعنى لتحقيق مقتضى الحال في دراسة اللغة ، ويحق له أن يفهم أيضا أن الجزء الأخير من عبارته السابقة مرتبط بجزئها الأول عن القرائن ، إفادة المدلول المقصود من الكلام - المعنى - تتحقق بأداء الألفاظ لمعانيها وتحقيق « بساط الحال » بكيفيات الجمل وتأليفها أو بعبارة أقرب : بالقرائن كلها ومنها الإعراب لا بالإعراب وحده .

وقد أكد هذا الفهم مرة أخرى في حديثه عن الموضوع نفسه ، إذ يقول :

• ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد ، واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية في دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه ، فتكون لها قوانين تخصها ، ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر ، فليست اللغات وملكاتنا بجانا (١) .

هكذا قرر ابن خلدون فكرته ، وهي في عبارة قصيرة (لا يضر فقدان الإعراب إذ تغنى عنه القرائن) وهي فكرة شديدة الجراءة ، لم يجرؤ أحد قبله أو بعده من علمائنا المتقدمين والمتأخرين على القول بها بهذه الصورة المتكاملة - فلنؤكد فهمها في حديثه عن المستوى التالى للغة « لغات التخاطب » ،

الإعراب وعرف التخاطب في الأمصار

لغة أهل الحضرة في الأمصار أو عرف التخاطب في الأمصار هي المستوى الثالث الذي تحدث عنه - وكأنا يتحدث عنا الآن - فوصفها بما يلي :

إنها لغة قائمة بنفسها مختلفة عن اللسان المضري القديم ومختلفة أيضا عن لسان العرب - أو لسان الجيل - لعهد ابن خلدون ، ويدل على ذلك ما فيها من التباير الذي يصفه النحاة باللحن ، وأيضاً استعمالها لاصطلاحات ، خاصة بها ، بل إنها تختلف فيما بينها من مصر لآخر ، فهي في المغرب وأفريقية غيرها في الأندلس والمشرق - ولو أنعمنا النظر قليلاً ونقلنا هذه النظرة إلى وقتنا الحاضر ، لوجدنا ما يقرب حديثه هذا من فهمنا في لهجات الأقطار العربية الآن ، فتلك اللهجات تختلف في العراق عنها في مصر ، وتختلف في ليبيا عن المغرب وغيره ، ومجالات الاختلاف هو هذان المظهران أنفسهما اللذان ذكرهما ابن خلدون واللحن والاصطلاحات الخاصة ،

ويعاود الرجل مرة أخرى هنا الحديث عن فهمه للملكة وتعلمها ليقدّم تفسيراً مؤيداً لرأيه عن استقلال لغات الأمصار ، وليسلك هذا الرأي في سلك نهجه كله ونظراته المتكاملة عن اللغة .

إن البعد عن اللسان العربي يكون بمخالطة المعجمة ، ومن خالط المعجم أكثر كانت لغته أبعد عن اللسان العربي ، وأهل الأمصار في المشرق والمغرب - لعده - ازداد اختلاطهم بالمعجم ، في إفريقية والمغرب بالبرابرة ، وفي الأندلس بالجلالقة والإفرنجية ، وفي المشرق بالترك والفرس ، والملكة إنما تحصل بالتعليم .. وهذه ملكة متدرجة من الملكة الأولى التي للعرب ومن الملكة الثانية التي للمعجم ، فعلى مقدار ما يسمونه من المعجمة ويربون عليه ، يبعدون عن الملكة الأولى (١) .

وهذا هو السبب فيما رآه من استقلال لغات الامصار وبعدها عن اللسان العربي . . نفس نظرتة .

لكنه خلال ذلك يقدم رأيه عن لغات الامصار وفقدان الإعراب فيها بقوله :
• وكل منهم متوصل بلغته إلى تأدية مقصودة والإبانة عما في نفسه ، وهذا معنى اللسان واللغة — وفقدان الإعراب ليس بضائر لهم ؛ كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد (١) .

أجل « تأدية المقصود والإبانة عما في النفس » هذه مهمة اللغة — أى لغة — ومضمون هذا الفهم هو ما يحدد به اللغويون المحدثون معنى اللغة ، فهم — فى رأيهم — مواضع عرقية يعبر بها كل قوم عن أغراضهم .

ثم هذه اللفتة عن الإعراب ، الذى فقد من لغات الامصار لعده — كما فقد من لهجاتنا الآن — وهذا فقد ليس بضائر لما ما دامت تؤدي مهمتها فى الإفهام والفهم وتوضيح المراد ، وقد التزم ابن خلدون فى رأيه موقف عالم الاجتماع الذى يصف ما أمامه من مظاهر اجتماعية — ومنها اللغة — فلم ينزلق إلى المفاضلة والاستحسان والاستهجان ، بل قدم الموازنة بين هذا المستوى — لغات الامصار — وغيره دون تفضيل ، ليوضح مدى تمايز — لا امتياز — لغات الامصار عن غيرها ، فبين التباين فيها من جهات ثلاث يطلق عليها الدارسون (اللحن — اختلاف المصطلحات الخاصة — فقدان الإعراب) ومع ذلك فهم لغات يتفاهم بها أهلها ، وقد فرضت استعمالها على الألسنة ، وحققت الصلات الاجتماعية بين الناس فى الامصار .

ربما كان هذا الفهم — وبخاصة ما قيل عن الإعراب — لدى الدارسين .

المحافظين للغة غير موفق ولا صواب ، لكنه بالفهم اللغوى الحديث وموقفه من اللغة ومستوياتها منتهى الصواب والتوفيق .

الإعراب وقرائن الكلام فى الشعر لعهد ابن خلدون

« الشعر لا يختص باللسان العربى فقط » ، « الشعر موجود بالطبع فى أهل كل لسان » ، و « لم يهجر الشعر بفقدان لغة مضر ، حول هذه العبارات الثلاث السابقة أدار ابن خلدون حديثه عن الشعر فى الفصل الحادى والستين من مقدمته . فالشعر وجد فى لغة العرب كما وجد فى لغات العجم ، فاليونان شعراؤهم وللفرس شعراؤهم كذلك .

والشعر موجود بالطبع فى كل لسان ، لأن الموازين — كما يقول — على نسبة واحدة فى أعداد المتحركات والسواكن وتقابلها موجودة فى طباع البشر . وقد كان للعرب شعراء فى لغة مضر المعربة التى استقرأها للنحاة ، ووضعوا على أساسها قوانين الإعراب ، ثم فسدت هذه اللغة بمخالطة الأعاجم — كما هو رأيه — وخرج منها ما أسماه لغة العرب لعهد الذى خالفت لغة مضر فى الإعراب وكثير من الموضوعات اللغوية وبنية الكلمات ، وأيضاً هناك لغات الأمصار التى فقدت الإعراب جملة ، واختلفت اصطلاحاتها فيما بينها .

ومع ذلك لم يهجر الشعر ، فالعرب المستعجمون — كما سماهم — يقرضون الشعر أيضاً مثل أسلافهم من العرب المستعربين فى سائر الأعراب وفى سائر الأغراض والفنون ، ويحىء شعرهم بلغتهم التى خالفت لغة مضر — كما سبق القول — فى الإعراب وبنية الكلمات .

هذا الشعر أطلق عليه أهل المغرب « الأصمعيات » ، وأطلق عليه أهل المشرق « البدوى » ، وسماها ما يتخنون به منه « الجوراني » ، — كما سبق تفصيل ذلك .

ومن هذا الشعر هذه الايات لا مرأة من «عرب نمر» بنواحي «حوران»
قتل زوجها ، فبعثت إلى أحلافه من «قيس» لطلب ثأره :

تقول فتاة الحى أم سلامه	بعين أراع الله من لارثى لها
تبيت بطول الليل ما تألف الكرى	موجعة ، كان الشقا فى مجالها
على ما جرى فى دارها وبوعياها	بلحظة عين البين غير حالها
وتأوى شهاب الدين ياقيس كلهم	ونمتوعن اخذ التار ماذا مقالها
أنا قلت إذ ورد الكتاب يسرنى	ويبرد من نيران قلبى ذبالها
أياشين تسريح الذوائب واللى	وبيض العذارى ما حيتو جمالها

فهذا نموذج من هذا الشعر ، وبثأمله يتضح أنه يمكن نسبته إلى بحر الطويل
(فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن) إذا نطقت كلماته معربة ، لكن يبدو أنه لم
يكن ينطق معربا ، بل كانت كلماته تنطق ساكنة ، بدليل أن كلمات القوافى
الست (ها — مجالها — حالها — مقالها — ذبالها — جمالها) لا يتفق فيها
حرف اللام إلا إذا سكن ، ولو خضع للإعراب لخرج عن مقتضى العروض .
وإذا علمنا أن هذه الايات مما يطلق عليه (الهورانى) الذى يغنى ، فإن
تقريب نطقها يكون بدفعها إلى أحد شعراء «الربابة» الجوالين ، ومن المؤكد
أنه سيغنيها على ربابته دون إعراب .

وظاهرة أخرى فى تلك الايات هى الكلمات التى خالفت الفصحى فى أبنيتها
(بوعياها - نمتو - أخذ - التار - حيتو) وهذا يؤكد ما سبق قوله من أن
أشعار العرب استخدمت لغة هذا العهد غير المعربة مع التغيير فى بنية الكلمات
فما رأى فى هذا اللون من الشعر ؟ !

يقدم ابن خلدون لرايه بأن المشتغلين بعلم اللسان - النحو والبلاغة - يرفضون
هذا الشعر ، بل يستكبرونه ، إذ هو مستهجن مرذول فاقد الإعراب — لكن
لابن خلدون رأى مخالف لذلك يقرره فى جرأة بقوله :

• فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملثة ، فإذا عرف اصطلاح فى ملكة واشتهر صحت الدلالة ، وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال ، صحت البلاغة ، ولا عبرة بقوانين النحاة فى ذلك ، وأساليب الشعر وفنونه موجودة فى أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب فى أواخر الكلم ، فإن غالب كتاباتهم موقوفة الآخر ، ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب (١) .

فالدلالة تصح بالاصطلاح والعرف ، والبلاغة تتم بالمطابقة لمقتضى الحال ، والكلام الموقوف الآخر يفيد المقصود منه من صحة الدلالة وكالمها ، وحركات الاعراب يستغنى عنها بالقرائن .

تلك نظرة ابن خلدون ونهجه ، ولم ينس أن يورد خلال ذلك رأى المشتغلين باللسان من النحاة — وقوافلهم ممتدة حتى وقتنا الحاضر — فذكر معارضتهم لكل رأى جديد يقال ، ثم أوجعهم تأنيبا وشتما ، فوصفهم بالخرفشة وقصور المدارك وتشيع الطباع وآفة الفطرة والنظر !!

هل بقى ما يقال ؟؟ نعم ، بقى شىء مهم يقال ، هو نقل تلك اللمحة الذكية المختصرة عن قرائن الكلام ، إلى تأصيلها وتفصيلها فى الدراسات اللغوية الحديثة .

(٣)

فى الشهور الأخيرة من عام ١٩٧٣ صدر بالقاهرة كتاب بعنوان (اللغة العربية - معناها ومبناها) من تأليف الدكتور تمام حسان ، وجاء فى تقديمه للكتاب قوله : والغاية التى أسعى وراءها بهذا البحث أن ألقى ضوءا جديداً

كاشفا على التراث اللغوى العربى كله منبعثا من المنهج الوصفى فى دراسة اللغة ، وهذا التطبيق الجديد للنظرة الوصفية فى هذا الكتاب يعتبر - حق مع التحلى بما ينبغى لى من التواضع - أجراً محاولة شاملة لإعادة ترتيب الافكار اللغوية تجرى بعد سيويه وعبد القاهر ، (١)

والكتاب بحق نتيجة معايشة طويلة للتراث اللغوى العربى وتفكير عميق فى خيوطه ونسيجه وفى تياراته واتجاهاته ، لتصنيفها على أساس جديد هى ما أطلق عليه المعانى والمباني والعلامات ،

والمعانى : فى الاصوات والصرف والنحو معان وظيفية تؤديها المباني التى تشتمل عليها وتبنى منها هذه العلوم ، فى مقابل المعنى المعجمى الذى تدل عليه الكلمة المفردة ، والمعنى الدلالى الذى يدل عليه المقام لا المقال .

والمباني : هى تجريد لغوى غير منطوق ولا مكتوب ، يعبر به عن المعانى ، وهو جزء من دراسة اللغة ، فهى رموز تستخدم فى نظام اللغة لمعرفة المعانى والدلالة عليها ، وتحقق فعلا فى العلامة التى فى الكلام المنطوق والمكتوب .

والعلامات : هى ما يتحقق فى الكلام المنطوق والمكتوب فعلا من تحقق المبنى فيه بعلامة خاصة ، ويكون للمبنى الواحد علامات متعددة ، واحدة منها هى النطق .

وقد قام المؤلف بتطبيق نظريته بعد شرحها فى الفصل الاول على الاصوات والنظام الصوتى والنظام الصرفى والنظام النحوى والمعجم والدلالة .

وليس من شأنى هنا دراسة هذا الكتاب وتحليله كله - فذلك موضع آخر - لكن المهم هنا ما جاء فى هذا الكتاب مما يتعلق بهذا البحث عن (قرائن الكلام وقوانين الإعراب) إذ قدم المؤلف فى الفصل الخامس من كتابه نظرية متكاملة عن « القرائن النحوية » جعل منها « هندسة جديدة » لفهم النحو العربى كله فى إطار هذا المنهج المحكم الدقيق .

وسأعرض - باختصار شديد - فكرته ، لتبين بعد ذلك مدى الصلة بينها وبين ما سبق فهمه عن هذا الموضوع نفسه فى رأى ابن خلدون .

بدأ بوضع الأسس التى يبنى عليها النظام النحوى للغة العربية للفصحى وهى :

١ — المعانى النحوية العامة (كالنفي والاستفهام والشرط الخ)

٢ — المعانى النحوية الخاصة ، أو معانى الأبواب النحوية (كالفاعلية والمفعولية الخ ..)

٣ — المعانى التى تربط بين المعانى الخاصة حتى تكون صالحة لأداء المراد منها عند تركيبها (القرائن المعنوية)

٤ — ما تقدمه الاصوات والصرف للنحو من مبان صوتية أو صرفية كالحرركات والحروف ومباني التصريف (القرائن اللفظية)

٥ — القيم الخلاقية أو المقابلات بين أحد أفراد عنصر مما سبق وبقية أفراد . وعلى هذه الأسس أقام المؤلف نظريته مما أسماه (قرائن التعليق) وتنقسم إلى نوعين :

• قرائن معنوية ، هى : الإسناد — التخصيص — النسبة — التبعية — المخالفة .

• قرائن لفظية ، هي : العلامة الإعرابية — الرتبة — الصيغة — المطابقة
الربط — التضام — الأداة — النغمة .

وشرح فيما يقرب من سبعين صفحة كل واحدة من هذه القرائن شرحاً
مضافاً ، مبيناً دور كل منها في النظام النحوي للغة العربية ، وشارحاً ما تحتها من
قرائن فرعية ؛ مما يستحق حديثاً مستقلاً ليس هنا مجاله .

لكن المهم في هذا البحث الإشارة إلى وجوه الاتفاق والاختلاف بين نظرة
العلامة ابن خلدون ومنهج اللغوي العربي المعاصر الدكتور تمام حسان عن
« القرائن وقوانين الإعراب » ،

أولاً : أنهما توافقا في التسمية « القرائن » ، فهي عند ابن خلدون « قرائن
الكلام » ، وعند الدكتور تمام حسان « قرائن التعليق » ، لفظية معنوية .

جاء في القاموس : القرين كالمقارن ، جمعه قرناء . المصاحب ، وبهاء
« قرينة » ، جمعه « قرائن » ، فكل واحدة من هذه القرائن تصحب الأخرى لتوضيح
المقصود من الكلام أو لبيان العلائق بين أجزائه .

ثانياً : أكد ابن خلدون أكثر من مرة أن هذه القرائن قد تغنى عن
الإعراب ، وأن الحركة الإعرابية واحدة منها فقط ، فيتضح المقصود من الكلام
بدون حركة الإعراب ، وجاء هذا المعنى نفسه في كتاب (اللغة العربية - معانيها
ومبانيها) بعد شرح القرائن تفصيلاً تحت عنوان « القرائن تغنى عن العوامل »
قال المؤلف :

• بعد أن بينت طبيعة القرائن المقالة معنوية كانت أو لفظية في دلالتها
على المعنى الوظيفي النحوي ، أحب أن أضيف إليها كلمة أخرى تتصل بإغناء
فهم القرائن المقالة عن فكرة العامل النحوي الذي قال به النحاة ، لقد أتجه

النحاة بقولهم بالعامل النحوى إلى إيضاح قرينة لفظية واحدة هى « قرينة الإعراب » ، أو « العلامة الإعرابية » ، فجاء قولهم بالعامل لتفسير هذه العلامات بحسب المواقع فى الجملة فكانت الحركات بمفردها قاصرة عن تفسير المعانى النحوية (١) .

ثالثا : قدم ابن خلدون رأيه فى إطار نظريته الاجتماعية اللغة على أنها « ملكة » ، تسكنسب بالتعليم والمران والدراسة ، وما دامت هذه الملكة قد تحققت فى مستوى اللغة لعده أو فى عرف التخاطب فى الأمصار ، فلها تكون مفهومة صحيحة بليغة بدون الإعراب ، إذ فيها من القرائن ما يغنى عنه .

وقدم الدكتور تمام رأيه فى إطار « المعنى والمبنى » وهى نظريته التى أقام عليها كتابه كله لدراسة الفصحى ، وكانت القرائن لبيان النظام النحوى فيها فقد اختلفت الجهة بين الاثنين — كما يقول أصحاب المنطق — لكن جاءت النتيجة واحدة لهما .

إن هذه اللمحة الذكية المركزة استجالات فى رأى العالم اللغوى المعاصر بناء- شاهقا منسقا ، متين الأساس ، محكم التنظيم ، رائع الساحات والحجرات .

ويبقى سؤال لا بد منه هو : هل تأثر الأخير بالاول فى جوهر الموضوع وفكرته !! لأدى ، فليس فى كتابه - اللغة العربية - أى إشارة لذلك ، بل كانت دهشته باللغة حين أطلعت - وهو أستاذى - على ما وقعت عليه من فكرة « القرائن » فى مقدمة ابن خلدون ، ودهشتنا نحن أبلغ من هذا الاتفاق المحض فى جوهر الفكرة وتسميتها بين هذين العالمين الجليلين .. اللذين فصلت بينهما القرون والآماد ، وجمعتهما العبقريّة النفاذة ، والمنهج الملتزم .

(١) اللغة العربية - معناها ومبناها ص ٢٣١ .